الطبعة الرابعة

محمد بن عبدالعزيز الداود



رواية

أوراق

طالب سعودي في الخارج

العبيكان
Obeikan

أوراق طالب سعودي

في الخارج

(رواية)

محمد عبدالعزيز الداود

العبيكان
Obeikan

أوراق طالب
سعودي في الخارج

(روايـة)

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الداود، محمد عبدالعزيز

أوراق طالب سعودي في الخارج./ محمد عبدالعزيز الداود.
ط٤ - الرياض، ١٤٣٠هـ

٣٠٢ ص ؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٥ -٧٣٠-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ٢٠٥١/ ١٤٣٠

ردمك: ٥ -٧٣٠-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ رقم الإيداع: ٢٠٥١ / ١٤٣٠

الطبعة الرابعة

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

الناشر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

ملحوظة: أي تشابه بين شخصيات هذه الحلقات وشخصيات حقيقية هو تشابه غير مقصود


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر

خلال ستة أشهر مضت، وهي مدة كتابة هذه الأوراق، حظيت بدعم رائع ومميز من العديد من الزملاء والأصدقاء والأقارب، فهم السبب الرئيس بعد الله -عز وجل- في تواجد هذه الصفحات بين أيديكم، فشكراً لهم.. ولكم.

الأستاذ/ عبدالله بن ناصر الداود، أحمد عبدالعالي، أحمد عبدالكافي، آمال إبراهيم، أسماء عبدالعزيز، أطياف عبدالعزيز، أماني إبراهيم، أمجاد إبراهيم، بسام المحيميد، بندر الداود، حسين دغريري، حصة سليمان، زياد الغنام، سفارة دولة نيوزيلندا في السعودية، عبدالرحمن الحمود، عبدالرحمن المشعل، عبدالعزيز العبدان، عبدالعزيز المهنا، م. عبدالله الداود، عبدالله الخريف، د. عبدالملك آل الشيخ، علي القحطاني، عمر الداود، عمر المشعل، فاطمة أحمد، د. فهد الداود، فهد السلمان، فواز الغامدي، فواز الوزيلع، فيصل الحازمي، متعب الجندل، محمد العبدالجبار، محمد العيدروس، مساعد النقيثان، ناصر المشعل، نايف اللحيدان، نايف المنيف، نورة عبدالرحمن، نوف عبدالرحمن، هنادي سليمان، وليد العتيبي، وكل من تابع هذه الحلقات عبر شبكة الإنترنت، في (شبكة حريملاء)، ومنتدى (العرب المسافرون).

- موقع المؤلف على الإنترنت:
www.mdawood.com

- البريد الإلكتروني:
mdawood@mdawood.com

- الغلاف فكرةً وتصميماً وتصويراً:
بسام بن عبدالله المحيميد
www.bassamart.com

المحتويات

١

مطار أوكلاند



مقولة نيوزيلندية

Toitu he whenua. whatungarongaro he tangata

الأرض أطول عمراً من الإنسان

نزلت من الطائرة وفي يدي حقيبتي اليدوية وورقة لابد من تعبئتها في الطائرة قبل الوصول، لكي تَفْتَح لك هذه الدولة أبوابها، سرت في المطار أتبع الركاب القادمين لأضمن سرعة الوصول.

بدأت ألحظ النظرات المتشكِّكة الموجهة إليَّ من الركاب وموظفي المطار، لم أكن متعجبًا؛ فعندما تكون ملامحك عربية وملتحيًا ومرتديًا معطفاً أسود فالتهمة ثابتة عليك لا محالة.

الكل يبتسم، وإن كنت أقرأ في العيون غير ذلك، ففيها إحساس بأني (مشتبه به) وهذا كافٍ!

بعد أن أخذت حقيبتي، أقبل رجل أمن ومعه كلب جعله يشتمُّ حقيبتي، وعندما لم يجد بغيته لديّ، كشر عن أسنانه فيما يشبه الابتسامة وهو يقول:

- بإمكانك المرور سيدي.

تبسمت في داخلي، وأنا أشعر بمرارته، ففي نظره أنا مشروع إرهابي جدير بتوقيفه والتحقيق معه، ولكنه وللأسف لم يجد دليلاً يثبت به نظريته.

بعد انتهاء إجراءات الدخول تابعت سيري إلى بوابة الخروج، عندها استوقفني أحد الضباط وسألني عن ورقة الدخول التي قمت بتعبئتها في الطائرة، مددتها له برهبة، نظر إليها بسرعة

ورفع عينيه نحوي بنظرة أشعرتني بأنني أحمل مرضًا معديًا، ووضع علامة (X) حمراء على الورقة وناولني إياها وهو يبتسم ابتسامة الظفر، وكأن عينيه تقولان: (أخيرًا أوقعت بك)، ثم قال:

- من فضلك تقدم نحو ذلك الرجل.

وأشار إلى ضابط يقف في آخر الممر كان يساعد امرأة كبيرة السنِّ على النهوض وهو يبتسم لها، تفاءلت خيرًا، فتوجهت نحوه، وبعد أن فرغ من المرأة، التفت نحوي وسرعان ما تلاشت تلك الابتسامة من على شفتيه، ووضع يده على السلاح المعلق في وسطه، واستعد لمقابلة هذا الإرهابي القادم نحوه.

قال وهو يتمعن في عينيّ لعله يعرف أين خبأت الأسلحة النووية التي أحملها:

- اتبعني من فضلك.

قادني عبر ممرات طويلة، والنظرة الصارمة لا تفارق عينيه، لدرجة أن كل الناس يتحاشون المرور بنا خوفا من هذا المجرم الخطير، إلى أن دخلنا غرفة واسعة، اقشعر بدني من برودةِ المكان وهدوئه، فالصالة كبيرة وممتلئة بطاولات كثيرة أقرب إلى طاولات التشريح منها إلى طاولات التفتيش، وفي ركن قصي منها يوجد ضابط آخر يحقق مع شخص صيني، وقد فتح حقائبه جميعها وأخرج كل ما فيها.

توقف عند إحدى الطاولات وقال لي:

- انتظر هنا، سأعود قريبًا.

دخل إحدى الغرف، وأخذ يكلم من فيها بصوت مرتفع، فجلست أنتظر إحضاره الزي "البرتقالي" ليُلبسني إياه..!!

* * *

- مرحبًا..

انتفضت من مقعدي، والتفت نحو صاحب هذا الصوت الناعم. أو بالأحرى (صاحبة) هذا الصوت.

ضحكت وهي تبتسم لي وتقول:

- هون عليك.. أنا لا أعض!

نظرت إليها، ثم التفت إلى الباب الذي دخل منه الضابط، الذي أطل برأسه نحو الطاولة التي جلسنا حولها متقابلين، وقال لها:

- أين (جيمس)، لقد أرسلت في طلبه.

- لا بأس، أنا أنوب عنه.

وجه نظره نحوي غير مقتنع بهذا التبديل المفاجئ وعيناه تقولان: (أيها المحظوظ سنلتقي مرة أخرى، وعندها.. لن تنجو أبدًا).

ثم قال لها:

- لا بأس، هو لكِ.

عندها فقط التقطتُ أنفاسي والتفت إليها بابتسامة من خُفِّف عنه حكم بالإعدام.

- ما اسمك سيدي؟

انتزعني هذا السؤال من خيالاتي، قلتُ وأنا أعيد ترتيب أفكاري مذكرًا نفسي بأني ربما نجوت من الإعدام غير أني مازلت أتوجس من محاكمة ربما تنتهي بي بالمؤبد.

- أنا.. اسمي (محمد).

ابتسمت، وقالت:

- هذا اسم سهل التذكر، أهلاً (محمد) أنا الضابطة (جوليا).

- (جوليا)؟

- نعم.

- اسم جميل.

وفي الواقع هو أبعد ما يكون عن صاحبته، فهي امرأة كبيرة السنِّ، في أواخر الأربعينيات تقريبًا، من السكان الأصليين

(الماوري)[1] ببشرة شديدة السمرة، وشعر أشعث، حَاوَلتْ جاهدةً أن يكون مرتَّبًا بشكل مقبول نسبيًا.

- شكرًا لك، الآن أخبرني لماذا أتيت إلى هنا؟

وكما يقولون في الغرب هذا هو (سؤال المليون دولار)!!

- حقيقةً وجودي هنا له سببان: الأول أنا في إجازة من عملي، والثاني أريد تقوية لغتي الإنجليزية.

هزت رأسها بدون اقتناع وهي تقول معقبة على قولي:

- حقًا؟.. لغتك تبدو ممتازة بالنسبة لي!

- شكرًا.. ربما تبدو لكِ في الوهلة الأولى كذلك.. ولكني أحتاج أن أزيد من حصيلتي اللغوية.

نظرت إليَّ نظرة أيقنت بعدها بعودتي إلى بلدي على متن أول طائرة مغادرة.

قالت وهي مازالت تمعن النظر إليّ:

- هل بالإمكان أن أفتح حقيبتك؟

- بالتأكيد.. هذا حقك.

---

(١) أول شعب سكن نيوزيلندا، لهم لغتهم وعاداتهم الخاصة، يتميزون ببشرة سمراء داكنة.

- هل أنت من قام بإعدادها؟

- إجمالاً نعم، فقد ساعدتني والدتي في ذلك.

شرعت في فتح الحقيبة وإخراج ما بداخلها، أردت مساعدتها ولكنها قالت:

- رجاءً، لا تلمس أي شيء.

أخرجت كل ملابسي وبعض أشيائي، وعندما وصلت إلى مجموعة من الكتب كنت قد وضعتها كي أقرأها في وقت الفراغ. شدني ماقامت به؛ إذْ استخدمت كلتا يديها المرتديتين قفازين حيث وضعت يدها اليمنى أسفل الكتب واليد الأخرى أعلاها، ثم قامت بحملها بكل حرص وعناية كأم تحمل طفلها الأول لأول مرة، حتى وضعتها على الطاولة، واعترى وجهها تعبير يجمع بين الرهبة والحرص... لم أقاوم فضولي كثيرًا فخرج مني تساؤل:

- لماذا حملتِ هذه الكتب بهذه الطريقة؟

نظرت إلي باستغراب وكأني أسأل عن شيء بدهيّ وهي تقول:

- أليس هذا القرآن الكريم؟

عندها فقط.. نسيت كل تلك النظرات والتهكمات، وزال كل تأثير أحدثته تلك الابتسامات الصفراء والزرقاء، وحل مكانها نوع عجيب من الثقة المطلقة بشأن من هو أنا، وماذا أمثل بالنسبة لهم،

وعظم ما أؤمن به، والفرق الشاسع الهائل بيننا وبينهم، وكم يجهلون من نحن؟ وما مبادئنا؟ وأخلاقنا؟ وكم نحن مقصرون في إبلاغ رسالتنا، وعقدت العزم على ألاَّ أرضى هوانًا، وأنْ أفتخرَ وأظهرَ عزتنا مادمت بين ظهرانيهم.

رفعتُ بصري وأنا أرى دهشتها على التأثير الجديد الذي انطبع علي، فابتسمتُ عندما رأيتُ ارتباكها، وأجبتها قائلاً:

- لا، هذا ليس هو القرآن، فمصحفي دائمًا معي.. أتريدين أن ترينه؟

بلهفة قالت:

- نعم، لو سمحت.

التفتّ إلى معطفي المعلق على الكرسي، وأخرجت مصحفي بكل عناية، وبكل هدوء أخذت أقلب صفحاته أمامها، وأنا أتكلم بثقة عنه، قائلاً:

- ألم تري المصحف من قبل؟ أليس لديك واحد؟

قالت والدهشة تملأ عينيها:

- هل أستطيع أن أحصل عليه؟ فغالبًا لا يسمح لنا المسلمون بلمسه، وهذه هي أول مرة أرى ما هو مكتوب فيه، أوه.. كم هو جميل!!

ابتسمت وقلت:

- بالطبع بإمكانك أن تحصلي على نسخة مترجمة له، أو ما نطلق نحن عليه تفسير القرآن، وللحصول عليه بإمكانك زيارة أقرب مركز إسلامي، وسوف يكون الإخوة هناك سعداء بإهدائك نسخة مجانية.

قالت وعيناها تبرقان بفرح طفولي:

- مجانًا!!.. بالتأكيد سوف أزورهم وأحصل على واحد.

تمنيت من أعماق قلبي أن تذهب لكي تعرف من نحن أكثر، ودعوت الله بأن يهديها، ثم استمرت هي تفتش، وإن كان حماسها بأن تجد شيئًا ممنوعًا قد فتر قليلاً، إلى أن وصلت إلى كيس أسود اللون، ثقيل الوزن، حملته بحرص فقالت وعيناها تشعان خوفًا:

- ما هذا الكيس؟

تبسمت. وأنا أذكر إلحاح وحَلفَ والدتي بأن أضعه معي في حقيبتي، وقلت لها بابتسامة هادئة:

- إنه تمر وقهوة.

قالت بشك واضح:

- ولماذا أتيت بهما معك؟ فكل الأطعمة متوفرة لدينا، بالإضافة إلى أن دولتنا تحظر اصطحاب الأطعمة وأنت على علم بذلك. أليس كذلك؟

تبسمت قائلاً:

- بالطبع أعرف ذلك.. ولكن هذا التمر هو من منتجات مزرعتنا، لذلك أصرت أمي على أن أصطحبه معي، بالإضافة إلى أنها قالت لي: (سوف تذهب إلى هؤلاء الأجانب ولن تجد ما يصلح للأكل هناك، وستموت جوعًا يابني).

عندها فقط... انفجرت مقهقهةً، فارتجت الصالة بضحكتها، والتفت جميع من في القاعة إلينا، بل إن الضابط المناوب خرج من غرفته وهو ينظر إلينا باستغراب وتأنيب للضابطة، فمهما يكن فما زلت مشتبهًا به.

قالت لي وهي تغالب ضحكاتها:

- يبدو أنك أوقعتني في مشكلة مع رئيسي، والسبب في ذلك هو أمك وتدليلها لك.

قلت وأنا أغالب ضحكاتي:

- يحق لها ذلك، فأنا أصغر إخوتي.

تبسمت وهي تعيد ترتيب الحقيبة بعد أن ألقت نظرة على جميع محتوياتها، وقالت:

- احرص على والدتك.

ابتسمت، وأقفلتُ حقيبتي ووضعتها بجانبي، ثم سألتني عن أوراقي فأعطيتها جميع الأوراق اللازمة، فقالت:

- لحظات، وسأعود إليك.

عادت لي بعد مدة وقالت وهي تعيد لي أوراقي:

- لقد انتهينا، بإمكانك أن تذهب الآن.

شكرتها ثم أرشدتني إلى بوابة الخروج.

وعندما خطوت أولى خطواتي خارج أرض المطار، لفحني هواء بارد منعش لذيذ، استنشقت الهواء العليل مبتسماً، وأخذت أتأمل قرص الشمس يختبئ خلف تلالٍ خضراء، والسحب ترسم أجمل اللوحات في السماء الزرقاء، أدركت حينها بأني وصلت،

فبعد أكثر من ساعتين من الانتظار والتفتيش،

وبعد أكثر من ٢٠ ساعة قضيتها معلقًا بين الأرض والسماء،

وبعد تخطيط دام لأكثر من سنتين،

ها أنا هنا...

أنجزت خطوتي الأولى..

والبقية تأتي..



طائرة كوانتاس

مقولة نيوزيلندية

"Ui mai koe ki ahau he aha te mea nui o te ao. Māku e ki atu he tangata, he tangata, hetangata , he tangata!"

عندما تسألني: ما أعظم شيء في هذا العالم؟
سأجيبك: الإنسان، الإنسان، الإنسان،،

أشارت الساعة إلى الخامسة مساء، مازالت لدي رحلة أخرى في تمام السابعة ولكن في مطار آخر، فمن الأشياء التي تعجبت منها أن مطار الرحلات الدولية منفصل تمامًا عن مطار الرحلات الداخلية.

توجهت نحو نفر من موظفي المطار كانوا يتحدثون خارج البوابة، وأنا أجر حقيبتي الثقيلة، سألتهم عن كيفية الوصول إلى المطار الداخلي، فأرشدوني إلى موقف للحافلات، حيث تقل حافلة المسافرين مجانًا إلى المطار الآخر.

أخذت أنتظر وأنا أنتفض من البرد ململمًا أطراف معطفي، لم أكن مستعدًا لطقس كهذا، فدرجة الحرارة في بلدي تزيد على ٤٥ درجة مئوية، أما هنا فهي تقترب من عشر درجات مئوية.

بحثت عن مكان أحتمي فيه من البرد فلم أجد، وضعت حقيبتي على الأرض، بدأت أتحرك قليلاً لأجلب لنفسي شيئًا من الدفء.

الهدوء يلفُّ المكان، فلا أحد من البشر حولي، أخذت أتأمل قرص الشمس وهو يتهادى نحو الأرض، سائلاً نفسي: هل يرى الأحبة نفس الشمس التي أراها؟

ارتجت الأرض من تحتي، وضج صوت من الجهة اليمنى هز طبقات السمع لدي، مع صرير للعجلات يصم الآذان، التفتّ فزعًا ناحية الصوت ووجدت حافلة تستعد للوقوف وسائقها يشير إلي.

عدت إلى حقيبتي، فوجدت السائق قد نزل ليعاونني في حملها، قائلاً:

- هل أنت ذاهب إلى المطار الداخلي؟

- نعم لدي رحلة في تمام الساعة السابعة.

حملت حقيبتي ووضعتها في المكان المخصص، والتفتّ أشكر السائق الذي أصر على مساعدتي في حملها، وأنا أتأمل الأوشمة التي تغطي يديه وذراعيه وجزءًا من رقبته. أوجست في نفسي خيفة منه، وعادت لي مخاوف الصبا عندما كنت أُخَوّفُ من (الحرامي)، وكيف أنه يسرق الأطفال ويأكلهم!! تخيلت هذا العملاق الموشوم بهذه النقوش العجيبة يلتهم فريسته الدسمة، فلم أتمالك نفسي من الابتسام.

بادلني هو الابتسامة وهو يقول: استعد للانطلاق فيبدو أنك الوحيد الذي سيذهب إلى المطار.

انطلقت الحافلة، وأنا ألملم أطرافي من شدة البرد، وأفرك يديّ لعلي أنعشهما بشيء من الدفء.

لمحني قائد الحافلة من خلال المرآة، وقال وهو يغالب ضحكاته:

- برد!! إنها فقط ١١ درجة مئوية.

قلت له متعجبًا:

- ألا يعد هذا طقسًا باردًا هنا؟

- نوعًا ما... ولكن بعد شهر أو اثنين ستتمنى مثل هذه الأجواء، فمتوسط درجة الحرارة في الشتاء يتراوح بين الصفر وخمس درجات!!.

اغتصبت ابتسامة من أعماقي، فكيف سأعيش في أجواء كهذه؟ وقد ألفت الحرارة الشديدة طوال عمري، وبين شعب أقصى درجة حرارة عرفها هي ٣٠ درجة مئوية، وقد أغمي على بعضهم من شدة الحر، وإن كنت أفرح بمثل هذه الدرجات بدعوى أن الجو (ربيع !!).

توقفت الحافلة عند مبنى لا تكاد تميزه عن بقية المباني، وقائدها يقول: يمكنك النزول. التفتّ مرة أخرى إلى المبنى وقرأت على لوحة غير واضحة (مطار الرحلات الداخلية). شكرت السائق وأنا أترجل من الحافلة داخلاً أجرّ حقيبتي الثقيلة.

لم يكن المطار يشبه أي مطار آخر رأيته في حياتي، وبالرغم من أن عقارب ساعتي كانت تشير إلى الخامسة والنصف، إذ بقي ساعة ونصف إلى موعد إقلاع الطائرة، إلا أن الصالة كانت خالية تمامًا من أي إنسان.

جلت ببصري في صالة الرحلات الداخلية (وإن كنت أتحرج من تسميتها بذلك) فهي أقرب إلى مكتب خدمات سفر وسياحة منها إلى مطار، فلا يوجد بها إلا مكتبة صغيرة، وآلة ذاتية البيع، تبيع بعض المشروبات والمأكولات الخفيفة، وطاولة عريضة (كاونتر) عليها حاسبان آليان.

لم يكن في الصالة أحد سواي، وضعت حقيبتي عند الطاولة وتوجهت نحو المكتبة، وجدت امرأتين تتحدثان، فسألتهما عن الرحلات المغادرة، قطبت إحداهنّ عن جبينها وهي تقول:

- متى موعد رحلتك؟

- في السابعة مساءً.

التفتت تحادث صاحبتها بأسرع لغة سمعتها في الكون، فمن المشهور عن النيوزلنديين أنهم أسرع من يتحدث اللغة الإنجليزية، وخصوصًا عندما يتحدثون فيما بينهم.

أصابني القلق، فمع خبرتي المتواضعة بالمطارات والطائرات، إلا أنني صادفت العديد من المآسي التي يندى لها الجبين مع خطوطنا الجوية، فحتى تضمن مكانًا في الطائرة لابد أن تكون بطاقة صعود الطائرة معك قبل الرحلة بخمس ساعات على الأقل، أو إن احتمال صعودك لهذه الطائرة سيكون مشكوكًا به، وعندها لابد أن تقبِّل أكثر من (خشم)، وترمي (عقالك) أكثر من مرة، حتى تُحشَر في مكان راكب آخر، لم يكن له معارف كالتي لديك!!

التفتتْ نحوي وهي تقول:

- تفضل معي.

وقادتني إلى المكتب الذي تركت عنده حقيبتي، وقالت:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- كرايستشيرش (Christchurch).

قُلتها بلهفة من يريد أن يركب في أي مكان على الطائرة، وسلمتها تذكرة السفر التي اشتريتها من بلدي.

كالعادة أطل فضولي برأسه، فقلت بتوجس:

- أمازالت هناك أماكن شاغرة؟

نظرت إليّ بدهشة وتعجب من هذا السؤال! ولمت نفسي، أفلا يكفي تأخري هذا، ساعة ونصف فقط على الرحلة، وتسأل سؤالاً كهذا؟!

انتزعتني من أفكاري السوداوية وهي تقول بابتسامة:

- سيدي، أنت أول مسافر على هذه الرحلة حتى الآن!

يبدو أن ملامح الدهشة والبلاهة غطت وجهي بالكامل، للحظة... لم أستوعب جيدًا ما قالته لي، أعدت النظر إلى ساعتي مرة أخرى.. نعم إنها ساعة ونصف بقيت على موعد الإقلاع، وأنا

أول مسافر على هذه الرحلة!! سرحت بي الخيالات بعيدًا ففي مطار جدة مثلا تقفل الرحلة قبل الإقلاع بساعتين!! حتى ولو كانت لديك كل تأكيدات الدنيا فالتأخر يعطيك هذه الإجابة (يابويا أنتا تأخرت، الرحلة تقفلت!!).

انتبهت لصوت المرأة وهي تنظر لي بتعجب:

- أأنت بخير يا سيدي؟!

حاولت أن أبتسم لكن أعماقي الموجعة لم تسعفني، قائلاً:

- نعم، شكرًا لك، إنما أنا مرهق قليلاً، فلقد كانت لدي رحلة طويلة، هل بالإمكان أن تجعلي مقعدي في الصفوف الأولى؟

- بالتأكيد..

سلمتني بطاقة صعود الطائرة، وقالت وهي تشير إلى درجٍ جانبي:

- اصعد هذا الدرج وستجد صالة الانتظار، يمكنك الجلوس هناك.

صعدت الدرج وأنا أُمني نفسي بصالة انتظار كالتي في مطار الملك خالد.

في الطابق الأعلى كان هناك جهاز تفتيش وضابط شبه نائم، التفت نحوي وهو يقول بريبة:

- هل أستطيع خدمتك بشيء ما؟

أظهرت له بطاقة صعود الطائرة، قائلاً:

- لدي رحلة إلى كرايستشيرش بعد نحو ساعة وربع.

- أوه.. مازال الوقت مبكرًا.

اجتزت الحاجز الأمني بسلام، ودخلت صالة الانتظار التي لاتكاد تنافس صالات الانتظار في مستشفيات الرياض.

في زاوية بعيدة وضعت حقيبتي اليدوية على أحد المقاعد التي لا يتجاوز عددها الخمسين. بقيت ساعة كاملة على وقت المغرب، جلست وأخرجت مجلة كانت معي، وبدأت أقرأ.

المكان يلفه الهدوء ويعمه الدفء، كنت مرهقًا من السفر المتواصل، فلم أستطع مقاومة النُعاس اللذيذ، فغرقت في نوم عميق.

استيقظت على صوت جلبة، كانت صالة الانتظار شبه ممتلئة، ومسافرون قادمون يدخلون مع أحد البوابات، وأحد الملاحين ينادي عبر السماعات على أحد الأشخاص.

استجمعت شتات أفكاري، نهضت من مكاني محاولاً نفض غبار النوم، نظرت إلى ساعتي التي أشارت إلى السادسة والنصف. عندما دوى صوت عبر السماعات المنتشرة في المطار:

- الرجاء من المسافر محمد التوجه إلى مكتب الأمن.

ماذا؟؟

بالتأكيد هناك خطأ ما !!

إلا أن الصوت عاد مرة أخرى وباسمي الثلاثي،

عرفت حينها أنني المطلوب بعينه.

مكتب الأمن !!

ترددت...

هل أختبئ إلى أن ينسوا أمري؟

أم أهرب من المطار وأسافر برًا؟

لا.. سوف أتصنع النوم وأتظاهر بأنني لم أسمع شيئًا.

كانت الأفكار تدور في رأسي وأنا أبحث عن مخرج من هذه المحنة. عندما سمعت صوتًا بجانبي يقول:

- أأنت السيد محمد؟

التفت لأجد الضابط الذي قابلته عند دخولي للصالة ينظر إلي بتجهم وعيناه تحدقان بيّ.

- ماذا... لا... أقصد.. نعم...، أنا محمد.

يبدو أنه لاحظ ترددي الواضح، فقال بشكٍ كبير:

- هل بالإمكان أن تعطيني تذكرتك وبطاقة صعود الطائرة وجواز سفرك.

أُسقِط في يدي، وبدأت أبحث عما يريده، وأنا أتحاشى النظر إلى عينيه القائلتين: (لا تحاول أن تكون ذكيًا، تهمك ثابتة، ننتظر فقط أن نجد القنبلة !!).

سلمته ما أراد وأنا أبتسم محاولاً أن أبدو بريئًا، توجه نحو بوابة الأمن وبدأ ينظر في الجهاز الذي أمامه. تبعته محتفظًا بابتسامتي البريئة، فأنا لا أؤذي حملاً وديعًا فما بالك (بحيازة مواد متفجرة)!!

أخذ يعمل على الجهاز الذي أمامه ويهز رأسه، بعد لحظة ارتد نظره إلي حسيرًا وهو يعيد أوراقي، ويقول:

- معذرة لإزعاجك، فقط نريد أن نتأكد من كل التذاكر التي تم شراؤها من الخارج.

ابتسمت فرحًا، وقلت:

- لا عليك، لكن متى سنركب الطائرة؟

- سوف نعلن عنها بعد قليل...

عندما عدت إلى مقعدي، وجدت أنه قد احتل من قبل مجموعة من العجائز اليابانيات، بقبعات حمر وصفر، ومعهنّ مرشد سياحي يتحدث معهنّ باليابانية، تعجبت من نظراتهن الموجهة نحوي، والمرشد يشرح بحماسةٍ، وكل المجموعة تختلس النظرات نحو المقعد الذي جلست فيه، يبدو أني أصبحت جزءًا من برنامجهن السياحي، منظر فريد لشرق أوسطي!!.

أنقذني من هذه المعاناة نداء للركاب للتقدم نحو بوابة الخروج اليتيمة، صعدت إلى الطائرة وأنا أناول بطاقتي لأحد الملاحين الجويين، فأشار إلى مقعد في الصف الأول في الدرجة الأولى!!

- لكن مقعدي في الدرجة السياحية.

- دعني أرى... هذا هو مقعدك (F-5).

جلست متعجبًا من هذا التصميم العجيب للطائرة، فالصفان الأولان فيها كانا مقاعد للدرجة الأولى والبقية مقاعد للدرجة السياحية.

أثارت الخدمة المقدمة في الطائرة اهتمامي، فبعد الإقلاع بدأ المضيف يوزع على الركاب أكواب ماء من نفس الكرتون! وبعدها عاد ليخيرني بين القهوة والشاي!! ومعه قطعة صغيرة من البسكويت، وفي الثالثة عاد ليسألني وهو يعطيني قائمة طعام: هل تريد أن تشتري أي شيء؟

- أشتري.. لا .. وشكرًا

سألت أحد النيوزيلنديين فيما بعد عن هذه الخدمة، فقال:

- إن الشركة قد وضعت استفتاء بشأن إضافة الوجبات ورفع سعر الرحلات، أو جعلها متوفرة بثمنها لمن أرادها.

أرخيت ظهر مقعدي، وأسندت رأسي... وبكل هدوء أغمضت عيني.

- مرحبًا بكم في مطار كرايستشيرش، درجة الحرارة هي تسع درجات مئوية، ورياح شرقية متوسطة السرعة، التوقيت المحلي يشير إلى التاسعة والنصف مساءً، نتمنى لكم إقامة سعيدة.

وشـــكرًا لاختياركم كوانتاس!

(وبالفعل كنت أملك حق الاختيار).

أيقظني هذا النداء من إغفاءة لذيذة،

وأنا أهمس...

- أخيراً.



کرایستشیرش

CHRISTCHURCH



مقولة نيوزيلندية

Manaaki Whenua, Manaaki Tangata, Haere whakamua

اهتمامك بالأرض، واهتمامك بالإنسان، دليل تقدمك

- أيتها الفاتنة...

كم هاجمتني الأفكار وأنا أخطو الخطوة الأولى على سلم الطائرة، تعرض عليّ كل مفاتنكِ، وكل ما فعلته حتى أصل إليكِ.

هل تعلمين... أن سهم هواكِ اخترق قلبي دونما استئذان؟ فأنتِ وحدكِ التي سلبت لبّي، وأنت الحسناء التي فازت بأميرها الوسيم! تبختري أيتها الجميلة فلقد وصلت إليكِ، وأضحت كل أحلامكِ حقيقة.

ترجلت من الطائرة منتشيًا بهذه الفكرة (الحسناء والأمير الوسيم)، مستنشقًا الهواء البارد، علّه يعيد شيئًا من الحياة لروحي المرهقة، فهذه خامس طائرة أركبها خلال الساعات الثماني والأربعين الماضية.

تمسكت جيدًا بمعطفي وأنا أنزل سلم الطائرة، مقاومًا شعورًا بالغثيان من هدير المحركات التي لم تهدأ بعد.

أخذت أجول ببصري في المطار، أبحث عمّن أرسله المعهد ليستقبلني، ودوامة من الأفكار السوداوية تتزاحم في مخيلتي، وأسئلة تطرح نفسها دون إجابات..

هل سأجد من سيستقبلني؟

وماذا سأفعل إن لم أجده؟

إنها التاسعة والنصف، وقد أطفئت جزء من أنوار المطار.

هل سينتهي بي المطاف نائمًا في إحدى زواياه المظلمة؟

وهل أتصل على المعهد في هذا الوقت من الليل؟ وهل سيرد أحد على اتصالي؟

أم قد يكون صاحب الوكالة التي حجزت عن طريقها قد خدعني، فلا معهد ولا يحزنون؟

حاولت أن أطرد كل هذه الأفكار، وأنا ألتقط حقيبتي، وأتفحص بعينين قلقتين كل لوحة أمامي باحثًا عن اسمي، أو اسم المعهد الذي سأدرس به..

أو أي دلالة قد تشير إليّ من قريب أو من بعيد...

ولكن... لا أثر!!

تابعت سيري ناحية بوابة الخروج، وظلام اليأس ينتشر في مخيلتي، وأنا أبحث عن بصيص أمل أضيء به ما في داخلي من روح،

عندما وجدتها...

لوحة صغيرة،

مكتوب فيها اسمي بأخطاء إملائية واضحة.

لا يهم...

المهم أنني المقصود.

توجهت نحوها.. مناجيًا:

أيتها اللوحة العزيزة، لماذا كل هذا العذاب؟ ألا يكفيك كل ما عانيته لتزيدي همي، واقتربت منها مبتسمًا، رافعًا بصري نحو الرجل الواقف خلفها، الذي قال لي بصوته الأجش:

- السيد محمد؟

- نعم.

ابتسم بود وقال:

- مرحبًا بك في كرايستشيرش، أنا (بِنْ) سائق المعهد، تفضل معي، السيارة من هنا.

تبعته إلى سيارته العائلية، ووضعنا الحقيبة في صندوقها، وتوجهت نحو الباب الأمامي للسيارة، و(بن) ينظر إلي متبسمًا وهو يقول مشيرًا إلى الباب:

- أتريد أن تقود؟

لم أفهم في البداية ما يرمي إليه، هل يريدني أن أقود فعلاً؟

ولكني عندما تبعت يده المشيرة إلى الباب، فهمت ما أراد، وغرقت في الضحك، فالباب الذي توجهت له لم يكن سوى باب سائق السيارة، فالناس هنا يقودون على الجانب الأيمن من الطريق، أو ما يسميه الأجانب (الجانب الخطأ)، وكان مقود السيارة كذلك في الجانب الأيمن من السيارة.

ركبت في الجانب الأيسر من السيارة (مكان القيادة لدينا) محاولاً أن أضع يدي كما هي عادتي على المقود غير أنها هوت في الفراغ.

كانت التجربة مثيرة، فكل شيء معكوس. بل كانت مخيفة في أحيان أخرى، وخصوصًا عندما تقابلك سيارة أخرى على خط مزدوج، فكلٌّ يسير على طريق الآخر!!

لم يكن المطار يبتعد عن المدينة كثيرًا. كانت ساعتي تشير إلى العاشرة والنصف مساءً عندما توقف (بن) أمام منزل كبير، وهو يقول لي:

- ها نحن وصلنا، سوف تسكن هنا.

التفت ناحية المنزل، أنظر إلى نوافذه الكثيرة المظلمة، بحثت عن نافذة مضاءة فلم أجد! فقلت له:

- يبدو أنه منزل للأشباح، فلا أحد هنا.

ابتسم وقال:

- الناس هنا ينامون في العاشرة، وجميع الأماكن تقفل في السادسة مساءً.

السادسة مساءً!! تخيلت طريق الملك فهد في الرياض عند منتصف الليل، إذ يغص بالسيارات، وبين ما أراه هنا. مدينة تموت عند العاشرة وتستيقظ مع شروق الشمس!! كيف سأعيش فيها؟

نزلت من السيارة أجر حقيبتي متوجها نحو المنزل، وقبل أن يضغط (بن) الجرس، انفتح الباب مصدرًا صريرًا مزعجًا، وكهل ذو شعر أبيض وبجامة رصاصية يقف خلفه مبتسمًا، وهو يقول:

- لابد أنك محمد، لقد عرفت بمجيئكما من صوت السيارة في هذا الشارع الهادئ، تفضل بالدخول، اسمي (أدموند)، ويسكن لديّ ثلاثة طلاب، كلهم نيام في الوقت الحالي للأسف.

دخلت إلى المنزل محاولاً أن أكتم أنفاسي عندما مررت بالعجوز، وأنا أنظر إليه وأقول في نفسي: ألا يستحم هذا أبدًا؟ متأملاً شعره الأشعث، وحاله الأقرب إلى الجنون.

ولم يكن حال المنزل أحسن حالاً من صاحبه، فالفوضى تعم المكان، وكأن إعصارًا مدمرًا مر من هنا وترك بصمته الواضحة،

وبالرغم من المحاولات لإضافة لمسات جمالية إليه، إلا أنها زادته بشاعة.

ودعت (بن) وشكرته على استقبالي، والتفتّ نحو (أدموند) الذي تبسم في وجهي ببلاهة وهو يقودني إلى الداخل، ويقول بأغبى عينين رأيتهما:

- اعذرني على هذه الفوضى، فزوجتي (كاثي) مسافرة إلى ابنتها في أستراليا، وستعود بعد شهر.

شهر... مع هذا الرجل، وفي هذا المكان، إنه الجحيم بعينه!!

يبدو أنه لاحظ قلقي، فقال لي وهو يرمي منشفة كانت على المقعد ويشير إلي لكي أجلس عليه:

- اجلس... ولا تقلق.. فأنا طباخ ماهر.

طباخ ماهر.

قلتها في نفسي وأنا أتأمل يديه القذرتين، وأشم رائحته النتنة، وأنفاسه الكريهة.

شعرت بسخرية المدينة، مرددةً: مرحبًا بك أيها الأمير، لم ألتفت نحو هذا الشعور، أليس (ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب)!

والتفتّ نحو (أدموند) قائلاً:

- شكرًا لك، ولكني متعب من السفر، وأريد أن أنام.

قادني عبر ممرات، رأيت مثلها فقط في أفلام الرعب، فمع الإضاءة الخافتة، والرائحة النتنة، وصرير الأرضية الخشبية تحت الأقدام، انتظرت أن يَخرُجَ لي (دراكولا) من إحدى الزوايا، أو ينقلب (أدموند) إلى ذئب مسعور، أو مصاص دماء.

توقف (أدموند) وهو يشير إلى غرفة مفتوحة قائلاً:

- تفضل، هذه غرفتك، لم تُعَدَّ جيدًا، ولكنها تفي بالغرض.

دخلت الغرفة أو (السجن الانفرادي)، كانت صغيرة جدًا، بسرير صغير زادها ضيقًا، وطاولة خشبية متهالكة، وكرسي صغير إذا أخرجته من تحت الطاولة سد كل مجال للحركة.

أغلقت الباب، مودعًا (أدموند) ومبتسمًا له، ومعزيًا نفسي،

كيف سأتحمل العيش في مكان قذر كهذا؟

بل... كيف سأنام الآن؟

والتفت ناحية السرير المغطى بملاءة ذات بقع ألوانها مختلفة عجزت عنها كل مساحيق التنظيف، وكل شعارات (نظافة أكيدة!).

أخرجت سجادتي من حقيبتي، وبعد أن أديت الصلاة، تكورت على سجادتي والتحفت معطفي، وغفوت في نوم متقطع من شدة البرد.

استيقظت من نومي المتقطع، وساعتي تصدر رنينًا ضعيفًا تعلن به دخول وقت الفجر، أخذت أتأمل الحالة التي أعيشها، غرفة قذرة، وظهر متصلب من النوم على الأرض.

كرهت كل شيء،

صاحب الوكالة.

وفكرة السفر،

بل حتى المدينة،

وعزمت أن أضع حدًا لكل هذا.

* * *

تأملت شروق الشمس، وأشعتها الذهبية الدافئة تداعب برفق وجه المدينة، وتبدد كل كدر أحدثه ظلام الليل، واستنشقت الهواء البارد المنعش. فعلى الرغم من تدني درجات الحرارة إلا أن الجو البارد هنا ممتع، بخلاف ماعليه البرد عندنا.

أخذت أسير في شوارع المدينة، مستمتعًا بأشعة الشمس الدافئة، ومسترجعًا بعض ما أعرفه عن هذه الفاتنة.

كرايستشيرش أو (كنيسة المسيح!)، تعد ثاني أكبر مدينة في نيوزيلندا، يسكنها أكثر من ٣٠٠ ألف نسمة، تقع فيها ثالث أكبر حديقة في العالم (الهاقلي بارك - Hagley Park)، وتعد هي نقطة الانطلاق للقطب المتجمد الجنوبي.

خرج (أدموند) من المنزل ووجدني أسير في الشارع غارقًا في تأملاتي، فأشار بيده قائلاً:

- صباح الخير، أرى أنك استيقظت باكرًا، كيف كانت ليلتك؟ هل نمت جيدًا؟

(نمت جيدًا!!) لم أهنأ بنوم، وليلتي كانت أسوأ ليلة لي على الإطلاق، كل هذا بسببك أيها (...)، كنت أفكر في غيظ، والمصيبة أنه يبتسم.

توجهت نحوه متأملاً ابتسامته العريضة التي تزيد وجهه قبحًا، وأقول في نفسي (الآن يا محمد... إما أن تعلن موقفك الآن.. أو فلتصمت لبقية حياتك).

قلت بجدية وعينان تقطران حزمًا:

- ليلتي؟ لم أستطع النوم البارحة، والسبب قذارة الغرفة، يبدو أنني سأقصد فندقًا هذا اليوم، وسأنام هناك. وفي الغد سأخبر المعهد بأني أريد مكانًا آخر أعيش فيه.

يبدو أن هجومي المفاجئ، وكل ما يحمله (أدموند) من أفكار مغلوطة عن العرب والمسلمين، كان له أثر كبير على هذا الكهل، الذي انقلب وجهه أبيض، وزاغت عيناه، وهو يتوقع مني الأسوأ.

بدأ يعتذر محاولاً أن يُطيب خاطري، ويعدني بإعداد غرفة أخرى. لم أجبه وإن كنت أرسم على وجهي ابتسامة عدم الاقتناع وأنا أهز رأسي.

عدت إلى الداخل محاولاً كتم أنفاسي لأحتفظ ببقية الهواء المنعش في رئتي قدر الاستطاعة، ودخلت غرفتي (زنزانتي)، فوجدت ظرفًا لم ألمحه منذ البداية بسبب الظلام، كان المرسل المعهد يهنئني بالوصول، ومرفقًا بداخله بعض المعلومات حول المدينة، ويطلب مني بعض الأوراق لأحضرها يوم الغد.

توجهت نحو الصالة التي كانت في حالة أفضل من الأمس، جلس فيها ثلاثة شباب ومعهم (أدموند) فقام وهو يعرفني عليهم:

- (جوي) من كوريا، يدرس في الجامعة،
- (ميشو) من اليابان، كذلك يدرس في الجامعة،
- (كارتر) من الصين، يدرس في معهد في وسط المدينة.

تبسمت لهم وأنا أومئ برأسي، ورنين الأسماء الغربية، مع تلك الأشباه الآسيوية، تثير العديد من التساؤلات، فالآسيويون يضطرون إلى تغيير أسمائهم لكي يسهل نطقها، فكارتر هو نفسه (هون تشون).

خرجت من المنزل متوجهًا نحو متجر كبير رأيته عندما وصلت البارحة. لم يكن لي هدف محدد، أردت أن أستكشف المكان، وأستمتع بالهواء المنعش، والشمس الدافئة.

عدت إلى المنزل بعد مدة، واستقبلني (أدموند) قائلاً:

- لقد جهزت لك غرفة أخرى، تعال معي لتراها.

سرت معه إلى غرفة جانبية، فتحها وهو يقول:

- إنها غرفة مخصصة للضيوف، ولم يسكنها أي طالب.

كانت الغرفة كبيرة، وجيدة التأثيث، وأشعة الشمس تطل مع نافذتها الواسعة، وسرير كبير.

نقلت حقيبتي التي لم أفتحها بعد، وكنت ألمح غيرة في عيني (كارتر) الذي كان يسكن في غرفة مجاورة لي.

جاءني (أدموند) وهو يقول:

- بعد الغداء، سوف نذهب إلى السوق، ثم سنأخذ جولة سريعة حول المدينة.

كانت الساعة تقارب الواحدة ظهرًا، عندما ركبت مع (أدموند) في سيارته (الكورولا -٨٥) كنت متعجبًا من نظافة السيارة، فالتفت العجوز إلي مفسرًا بعد أن لمح التساؤل في عينيّ قائلاً:

- إنها سيارة (كاثي)، فسيارتي متعطلة.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف عندما عدنا، كنت مرهقًا، فتوجهت نحو غرفتي الجديدة، وأغلقت الباب، ثم غرقت في نوم عميق.

استيقظت على طرقات بابي، و(ميشو) يقول:

- العشاء جاهز.

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف.

عشاء... وفي هذا الوقت !!، لم أكن جائعًا، مع أن آخر وجبة أكلتها كانت (تفاحة) اشتريتها في الصباح. جلست حول المائدة، أرقب ما أعده لنا (الطباخ الماهر!!)، سلطة، لحم مشوي غريب الشكل واللون!! فوقه بطاطس مهروس. لم أكن أثق (بأدموند)، لذلك أخرجت اللحم من قائمتي، واكتفيت بالسلطة.

عندما عدت إلى غرفتي كانت الساعة تشير إلى الثامنة، ولم أكن هنأت بنوم منذ مدة.

وبكل ما أحمله من يأس، وضيق وقلق وتوتر...

وضعت رأسي المتعب على الوسادة، ودموعي تسابقني،

أهكذا أيتها الحبيبة تغدرين بي؟

هل أستحق هذه المعاملة؟

أين حسن اللقاء؟

أين المحبة؟

أين المودة؟

بل...

أين أنتِ؟

٤

اليوم الأول



مقولة نيوزيلندية

He tini nga whetu e ngaro I te kapua iti

النجوم الكثيرة لا تحجبها سحابة صغيرة

تململت في فراشي، التفتّ إلى المنبه الذي أشارت عقاربه إلى الخامسة فجرًا أحثه على الإسراع، ساعة كاملة ويدخل وقت الفجر، نهضت من فراشي وأخذت أقلب ظرفًا وصلني البارحة من المعهد يطالبني بالحضور باكرًا مصطحبا جميع مستنداتي.

في تمام السابعة كنت جاهزًا، فلدي موعد مع (كارتر) الفتى الصيني الذي يسكن في الغرفة المجاورة، لكي نذهب معًا بالحافلة إلى المعهد.

وصلنا إلى محطة للحافلات، حيث كان ينتظر هناك سيدة كبيرة في السن، وشاب يلبس بدلة رسمية، وطفلتان بلباس مدرسي.

أقبلت الحافلة بعد طول انتظار، كانت ممتلئة عن آخرها، فلم يكن أمامنا سوى الوقوف، وفي الحقيقة سعدت بهذا، ففيه فرصة رائعة لتأمل الركاب -وهو ما أحب أن أفعله دومًا- بدأت أجول ببصري في الوجوه الشاحبة التي تغالب ما علق بها من آثار النوم، وتتأفف من الزحام.

الكل في شغله الشاغل، فهذه تقرأ قصة مشهورة، وآخر دفن رأسه منهمكًا في قراءة الجريدة، وطفلتان تتغامزان سرًا وتضحكان على رجل صبغ شعره بألوان الطيف.

يبدو أن (كارتّر) انتبه لما أفعله، فأشار إليّ - وهي لغة التفاهم الوحيدة بيننا فلست أجيد الصينية وهو لا يجيد العربية

ولا الإنجليـزية - بـأن أنتبـه إلى الطريق لكـي أعـرف طريق العـودة، فبعد أن نصل سأكون أنا وشأني.

ركـزت انتبـاهي على الطريق وأنـا أحـاول أن أحـفظ أسـمـاء الطـرق والمحـلات قـدر الإمكان، وبدأت أتخـيـل الخـريطة التي قرأتها عشـرات المـرات لكي أحـدد أين أنا الآن؟.. ولـكن للأسف لم أستطع!!

أيقظتني من تأملاتي يد تهزني عندما توقفت الحافلة، وكارتر يشير إليَّ بأن انزل هنا، نزلنا من الحافلة وأشار إلى شارع فرعي ينتهي بمبنى من ستة طوابق وهو يقول بلغة ركيكة:

- أنت.. تذهب هناك.. مدرسة!!

أومأت بيدي إليه شاكرًا ويمّمت وجهي نحو المبنى الذي لم أعانِ كثيرًا في العثور عليه، هاهو المعهد...

فبعدما حفظت شكله الخارجي من الصور والمنشورات الدعائية، ها نحن نلتقي أخيرًا وجهاً لوجه، بدأت أستكشف المنطقة والأماكن المحيطة به، إلى أن اقترب موعد المقابلة.

تقدمت نحو الباب وأنا أجرُّ قدميَّ الرافضتين أحثهما على المضي قدمًا، قلبي يعلن موقفه بدقات عنيفة، والرئتان ترد عليه بأنفاس لاهثة، عيناي.. أذناي... كل جسدي أعلن تمرده عليّ،

وقفت للحظة ألتقط أنفاسي، محاولاً تهدئة نفسي، وهتفت في داخلي (يا رب يسر لي أمري، فأنا وحيدٌ غريبٌ بينهم، لا دين يجمعنا ولا لغة تقربنا) أحكمت السيطرة عليها .. واقتربت من الباب الذهبي، ورمقت النجمة الخماسية الزرقاء التي تعلوه، والرهبة مع شيء من الأمل تسودان الموقف.

دخلت الباب، مقدمًا قدمي اليمنى تفاؤلاً، أخذت نفسًا عميقا وأنا أرقبُ من بالداخل.

المدخل عبارة عن صالة واسعة، تناثرت فيها مقاعد بيضاء مربعة الشكل، جلس عليها مجموعات غريبة من البشر، عيونٌ بألوان الطيف، رؤوسٌ صفراء، وأخرى حمراء، ألسنةٌ متباينة، مزيج فريد من البشر، وتنوع في الجنسيات قلّما تجد نفسك في خضمه.

حاولت أن أركز انتباهي محاولاً السيطرة على يديّ المرتعشتين، وأنا أتقدم نحو مكتب الاستقبال القابع في آخر الصالة. فضولي كالعادة لم يمهلني فأخذت أتأمل هذا المنظر الفريد، وأركز في الأصوات واللغات التي تصدر من الجلوس حولي محاولاً تصنيفها، إلى أن أنقذتني منه موظفة الاستقبال التي بادرتني قائلةً:

- مرحبًا بك في المعهد. اسمي (سوزانا)؟

- مرحبًا.

ابتسمت وهي تقول ملاحظةً ارتباكي وترددي:

- أهو أول يوم لك في المعهد؟

- نعم.

مددت لها الظرف الذي يحوي المستندات جميعها وأنا أقول:

- اسمي (محمد)، سأدرس لديكم هنا.

- أهلا وسهلاً، رجاءً انتظر قليلاً.

أخذت أقلب بعض المنشورات الموجودة أمامي، وأنا أختلس النظر إلى الموجودين في الصالة، وأتساءل (أيهم سيكون معي في نفس القاعة الدراسية)؟ بعد قليل من الزمن، نادتني (سوزانا) وهي تقول لي:

- (محمد)... لديك امتحان لتحديد المستوى سيبدأ بعد قليل، يمكنك الانتظار في غرفة الامتحان.

قادتني إلى غرفة قريبة، كانت شبه ممتلئة بالطلاب وقالت:

- تستطيع أن تجلس في أي مكان تحب.

جلت ببصري في المكان، أرقب الوجوه الغريبة، عينان ضيقتان، شفاه رفيعة، شعر أشقر، لم أجد شيئًا مألوفًا، كل شيء غريب، كل شيء مستورد.

أعدت النظر مرة أخرى، عندها التقيت عينين سوداوين كليلٍ مظلم تحدقان بي، شعرت بانتماءٍ لهاتين العينين، لذا حزمت رأيي وتوجهت ناحيتهما.

- مرحبًا.. هل بإمكاني الجلوس هنا.

وأشرت إلى مقعدٍ خالٍ.

أشرقت العينان، وتألقت الشفاه بابتسامة رائعة:

- بالتأكيد.. يمكنك الجلوس.

- شكرًا.

* * *

كان على طاولتي ورقة بيضاء وقلم رصاص، التفتّ إلى من بجانبي، وقلت:

- كيف حالك؟

التفت نحوي وابتسامة تضيء وجهه الأسمر، وهو يقول:

- بخير، أنا (محمد عذيب)، من سيريلانكا.

قلت له بابتسامة عريضة:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا (محمد عذيب)، أنا أيضًا اسمي (محمد).

اتسعت ابتسامته حتى ظهرت أسنانه البيضاء وهو يرد علي السلام بلغة عربية ركيكة، ويقول:

- مرحبًا بك يا أخي.

(أخي!!)... يالها من كلمة يا عذيب،

لقد أصابتني في مقتل، وتهاوت معها كل حصوني المنيعة، واقشعر جسدي، وأحسست بماء بارد من الطمأنينة ينصب عليّ، وكأن همًا انزاح عن كاهلي المتعب، فهناك مفردات جديدة لم أكن أشعر بمعناها من قبل، ولم تكن تؤثر في نفسي مسبقًا، فكلمة (أخي)... أعادت التوازن لحياتي الجديدة، فلست وحيدًا،

بل معي غيري، وبمفهوم لم أدركه مسبقًا..

إنه (الأخوة)...

انتزعني من تلك الدوامة العاطفية دخول شاب في أواخر الثلاثينيات، بلحية شقراء مهذبة، وبحيوية متكلفة قليلاً قال:

- مرحبًا بكم جميعًا في المعهد، اسمي (جريج)، أعمل كمشرف أكاديمي. سنبدأ بإجراء امتحان تحريري وشفهي القصد منه تحديد مستواكم اللغوي، وبعدها سنأخذكم في جولة في المعهد، ومن ثم ستصحبكم سوزانا في جولة حول المدينة.

بدأ بتوزيع أسئلة الامتحان، ونظرت إلى (عذيب) وبابتسامة خبيثة قلت له:

- أتريد أن أغششك؟

يبدو أن حسه الفكاهي لم يكن في أوجه تلك اللحظة، فالتفت نحوي وقطب حاجبيه وهو يقول:

- كيف تقول هذا؟ مسلمٌ وتغش؟

ضحكت وأنا أرد عليه:

- هون عليك، الأمر كله مزاح...

لم ترق له إجابتي!! فآثرت السلامة، وركزت انتباهي إلى الورقة التي بين يدي.

مجملاً لم تكن الأسئلة صعبة - ولكنها وكعادة هذه النوعية من الامتحانات -كثيرة، كي تحدد مستواك الحقيقي. أنهيت الأسئلة الخمسين، وتوجهت نحو (جريج) الذي كان جالسًا في آخر الغرفة. فطلب مني الجلوس وبدأ يجري معي امتحانًا شفهيًا.

- أهلا (محمد)، أرجوك عرف بنفسك؟

ابتسمت محاولاً تهدئة نفسي:

- أنا (محمد) -كما تعرف- سعودي، أتيت لكي أدرس هنا.

- ولماذا نيوزيلندا؟ كان يمكنك الذهاب إلى بريطانيا أو أمريكا.

قلت بابتسامة صفراء وأنا ألمح مديرة المعهد تقف خلفه وتستمع لجزء من محادثتنا:

- ولماذا أذهب هناك؟.. ألستم أنتم الأفضل؟

ابتسم وهو ينظر في عيني كمن يقول: (حسنًا أيها المتحذلق).

- بالتأكيد نحن الأفضل، وإنما كنت أقصد المسافة، فتلك الدول أقرب لك من نيوزيلندا.

لم أمهله كثيرًا فأعدت الكرة إلى ملعبه، قائلاً:

- بالتأكيد المسافة بعيدة، ولكنها تستحق العناء. ألست معي في ذلك؟

ابتسم ورفع رايته البيضاء، وقال:

- ربما، أشكرك على هذه المشاعر الطيبة.

أنهيت الاختبار وخرجت من القاعة منتشيًا بانتصاري في هذه الجولة، ولكني بعد مدة أدركت أنّي الخاسر الأكبر من تلك المجادلات، (فجريج) هو المسؤول عن الأمور الأكاديمية للطلاب، وقد عانيت الكثير من الأحداث بسبب استظرافي معه.

كان المعهد يحتل ثلاثة طوابق من أصل طوابق المبنى الستة، فالطابق الأول فيه المكتبة وصالة الانتظار بالإضافة إلى مكتب الاستقبال، وفي الدور الخامس تقع إدارة المعهد بالإضافة إلى بعض القاعات الدراسية، وفي السادس بقية القاعات ومطبخ صغير فيه بعض آلات البيع الذاتية.

كانت ساعتي تشير إلى ١١:٣٠ صباحًا عندما طُلب منَّا أن نجتمع في صالة الانتظار لتأخذنا سوزانا في جولة حول المدينة تستمر حتى منتصف النهار.

لم ترق لي الفكرة، وقررت المكوث في المعهد، واستكشاف المنطقة. عرضت الفكرة على عذيب الذي رجح فكرة الذهاب.

لم أكن أعلم حينها أن تخلفي هذا كان لحكمة، وأنني بصدد لقاء شخصية عظيمة كان لها كبير الأثر فيّ بعد الله عز وجل.

خرجت أهيم على وجهي في الطرقات، لا أقصد شيئًا بعينه، أخذت أبحث عن محل للإنترنت، لكني لم أوفق. عندها رأيت سيارة أجرة تنتظر في مكان مخصص لذلك، بزغت في رأسي فكرة... لماذا لا أذهب إلى المسجد؟

بقي نصف ساعة على الظهر، سأذهب وأصلي وأعود لبقية برنامج الظهيرة. توجهت نحو سيارة الأجرة، سألت السائق:

- هل أستطيع الذهاب معك إلى المسجد؟

- بالتأكيد.

استيقظت رغبة المساومة لدي وأنا أقول له:

- بكم؟

نظر إلي بتعجب وكأنه ينظر إلى رجل من العصور الوسطى، وهو يقول:

- حسب ما يُظهره العداد، وأعتقد أنها تقارب عشرة دولارات.

ركبت معه وأنا أعاود قراءة الخريطة في ذهني، لكي أضمن أن يذهب مع أقصر الطرق... ولكن لم أدرِ أين أنا!!

فضولي وجد سَعْدَهُ مع (بوب) سائق الأجرة الذي أخذ يتحدث طوال الطريق عن أنظمة سيارات الأجرة في المدينة، وما الشروط للحصول على رخصة لذلك -يبدو أنه وجد فيّ القدرة اللازمة لكي (أتكّس). وعندها تمادى بي فضولي وسألته:

- كم دخلك اليومي؟

حدجني بنظرة قاسية، ارتعدت منها فرائصي، فلو سألت أحد أطفالنا (ما اسم أمك؟) لما حصلت على مثل هذه النظرات المهولة، وقال لي:

- هذا شأن لا يخصك، اهتم بأمورك فقط!!

ابتلعت ريقي بصعوبة، وابتلعت معه لساني وبقية فضولي، وتلاشت لطافة السائق، وساد صمت مميت داخل السيارة، حاولت أن أبدده بأسئلة على غرار (ما اسم هذا الشارع؟ وأين نحن الآن؟) ولم أجنِ إلا أنصاف إجابات.

أوقف السائق سيارته على ضفافِ شارعٍ جانبي عند حديقةٍ مهجورة، لم يعجبني هذا التوقف المفاجئ، ولم أرتح للصورة المرتسمة:

سائق غاضب،

راكب متطفل،

حديقة مهجورة.

أوجست في نفسي خيفة، وجهزت كل طاقاتي الصوتية لكي أصرخ طالبًا النجاة، وتهيأت للدفاع عن نفسي متذكرًا كل الحركات التي تعلمتها.

التفت نحوي بعينين حمراوين كالدم القاني، وهو يكشِّر عن أسنانه، وأنا أستعد لأطلق صرخة النجاة، وأبحث عن سلاح مناسب بجانبي...

وقال السائق بصوت متحشرج:

- لقد وصلنا... هذا هو المسجد هنا.

تدلى فكي ببلاهة، وشعرت بالغباء وأنا أحدق في ابتسامته، ويده المشيرة إلى مبنى في الجهة الأخرى من الشارع، حاولت أن أركز فيما يقوله لي، هل أنا بمأمن منه فعلاً؟

خرجت من السيارة وأنا أدفع له مبلغًا من النقود قائلاً احتفظ بالباقي... فقط أريد الخلاص...

وقفت في مكاني محاولاً إعادة التوازن لنفسي، وتقدمت نحو المسجد، متأملاً هذا المبنى الجميل، بياضٌ ناصع، نورٌ يشعُّ من ثناياه، بوابة خُط عليها بأناقة (مسجد النور).

أرهفت سمعي لصوت أخاذ ينادي لصلاة الظهر، مبخرا كل أثر أحدثه لقائي مع (بوب)، وتردد صدى الأذان في داخلي، وبدأ يغسل ما بي من هموم الغربة وآلام الوحدة، لم أكن أتصور أن تهز هذه العبارات كياني، أرخيت لها سمعي، متشرّبًا لمعانيها...

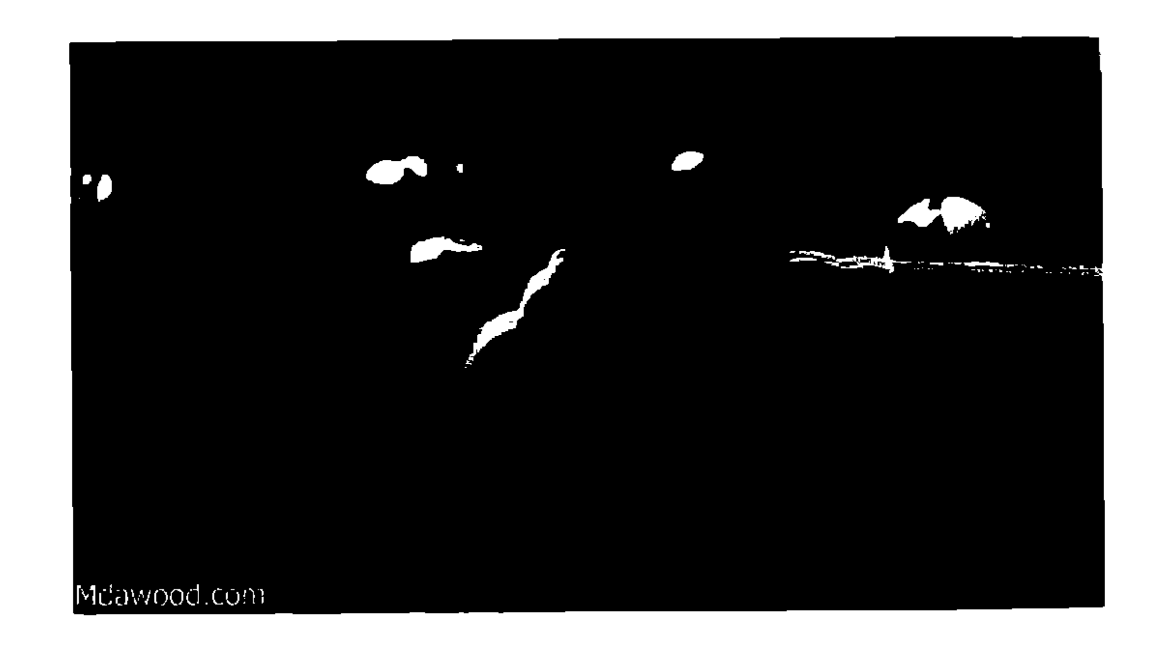
الله أكبر...

الله أكبر...

لا إله إلا الله ...

٥

مفترق طرق



مقولة نيوزيلندية

Waiho i te toipoto, kaua i te toiroa

لنبقَ متفقين، لا مختلفين

دخلت من بوابة المسجد الوحيد في هذه المدينة، متأملاً جماله العمراني، منبهرًا بروعة الطبيعة من حوله.

كان القلق يسيطر عليّ، فمازلت أجهل ما أنا مقدم عليه، وما هو المسار الذي سأسلكه، ما جعل بركانًا من الأسئلة يثور في داخلي!

هل هذا مسجد للمسلمين السنة؟

أم تراهم شيعة؟

أم صوفية؟

ربما كان المشرفون على المسجد من الموسومين بالإرهاب؟ في ظل التعريفات العالمية الجديدة.

فهل أخاطر بنفسي عندما أدخل هنا؟

ربما كانوا من أصحاب البدع؟

وأنا القادم من معقل الوهابية؟ (في معتقدهم!)

كان التردد يفرض سيطرته على خطواتي، فتارة أتقدم وفي الأخرى أعود أدراجي.

دخلت المسجد سيارة بيضاء، وقفت في المواقف الداخلية، ونزل منها راكبان، الأول شاب في أوائل العشرينيات من العمر، لم أستطع أن أتبين ملامحه جيدًا.

أما الآخر... فاقشعر جسدي ووقف كل شعر رأسي عندما رأيته،

وجه صبوح،

ولحية مهيبة تضيء وجهه الجميل،

عينان ذكيتان براقتان ترمقانني بحذر!

توقفت نبضات قلبي، وكتمت أنفاسي عندما تقدم نحوي في خطوات واثقة، لست أدري لماذا شعرت بالألفة نحوه؟

أهي ابتسامته الواثقة؟

أم سحنته العربية؟

لكن بالتأكيد ما زاد الألفة هو ما كان يلبسه!

مد (أبو حاتم) يده ليصافحني معرفًا بنفسه ويقول:

- السلام عليكم ورحمة الله، الأخ سعودي؟

رددت عليه السلام وأنا أصافحه قائلاً:

- بالتأكيد!

فقال بابتسامة واثقة:

- تعال نصلِّ الظهر معًا، فالصلاة تقام بعد عشر دقائق من الأذان.

تبعته وأنا أحاول أن أقاوم فضولي الذي جرني إلى سؤاله، فقلت وأنا أتبسم:

- معذرة يا(أبوحاتم)، لكن هل نحن في كرايستشيرش أم في (السويدي)؟!

كاد الرجل يقع من الضحك، وهو يشير إلي قائلاً:

- لماذا؟

- فقط... عندما رأيت ما تلبسه تخيلت نفسي في وسط شارع السويدي العام!!

كان (أبوحاتم) يلبس حينها الثوب السعودي والشماغ، وكأنه في وسط السعودية، وليس في دولة أجنبية.

عدت إليه مرة أخرى بتساؤل:

- ألا تعاني من مضايقات بسبب هذا اللباس؟

- نادرًا... فقط نظرات استغراب، وتكون عادة مدخلاً جيّدًا للدعوة.

دخلنا المسجد، الذي كان يحوي مكتبة، ومكتباً للمركز الإسلامي[١]، ومصلى، وساحة خارجية تقام فيها الأنشطة المتنوعة،

---

(١) Muslim Association Canterbury - www.mac.net.nz.

فالمسجد لم يكن مكان لتأدية الصلوات فحسب، بل كان مركزًا للدعوة، ومتنفسًا لمسلمي هذه المدينة.

بعد أن أمّنا (أبوحاتم)، توقف للتحدث مع سكرتير المسجد، وهو يشير إلي أن أنتظره.

جلست بجانب (خالد) الشاب الذي حضر مع (أبو حاتم)، وبدأت أتحدث معه، كان قادمًا للتوّ من المطار، في العشرين من عمره، عينان يقظتان، ملامح ناعمة، جبهة عريضة، يغلب عليه الهدوء، جاء لدراسة اللغة ومن ثمَّ سيدرس في الجامعة.

التفت (أبوحاتم) ناحيتي وهو يقول بثقة متناهية:

- المعهد الذي تدرس فيه، ليس بالمستوى المطلوب، سوف نغير لك المعهد! وسندبر لك سكنًا آخر غير (أدموند) هذا، فالرجل نفسه وكذلك منزله من أسوأ ما يكون!

أعطاني (أبو حاتم) رقم هاتفه، وأرقام بعض (الإخوة) إذا احتجت إلى أي شيء! لم أقل أيّ شيء، كنت فقط مندهشًا من الطريقة والأسلوب الذي كان يتحدث به مع سكرتير المسجد، وهما يحددان مصيري! وكأن كل مفاتيح هذه الدولة بيدهما! وكأنه لا رأي لدي!

ومع استخدامهما لمفردات مثل (سوف نغير)!! و(سندبر لك)!!

ثار بركان من الأسئلة داخلي...

كانت الأسئلة تتلاحق بسرعة ولا أستطيع أن أشفي غليلي بالإجابات!

فما سر (نون الجمع) في (نغير وندبر!!)؟

هل أنا في خطر؟

هل ورطت نفسي مع تنظيم ما؟

هل هذا نوع من التجنيد لحزب أو لفكر معين؟

هل سينتهي بي المطاف (أحمل حزامًا ناسفًا)؟

وأدخل مجمعًا ما...

وبعدها يتحول كل شيء إلى رماد!!

* * *

لم يكن يخطر ببالي أن المسلمين سيكونون بهذه القوة والسلطة في المدينة! ويعرفون كل المداخل والمخارج فيها.

فعندما تكون لديك مشكلة مع المحكمة اتصل بـ (أحمد).

مشكلة في التعليم والمعاهد.. لا بأس (أبو حسام) موجود.

قضية أمنية!! اتصل بـ (بشير).

وهكذا...!

قمت مستأذنًا، فستبدأ محاضرتي بعد نصف ساعة. لحق بي (أبو حاتم) وهو (يحلف) بأن يوصلني إلى المعهد، لم أستطع أن أرفض ذلك، خصوصًا بأنه سيوفر عليّ بضعة دولارات.. فركبت معه، وانطلقنا.

عندما وصلنا إلى المعهد التفت نحوي وهو يقول:

- (محمد)، سوف أمر عليك في السابعة مساءً لنذهب إلى المسجد، ومن ثم لتناول العشاء في بيتي بمناسبة وصولك أنت و(خالد) وأحد الإخوة.

رنت في أذني كلمة (أحد الإخوة) وأنا أنزل من السيارة، فلم أتمالك نفسي من الابتسام، وأنا أقول معتذرًا:

- أبو حاتم، نحن في نيوزلندا، (الولائم والمناسبات) تركتها هناك!

لم يرد عليّ، وأعاد وهو يتحرك بسيارته:

- السابعة مساءً سوف أمر عليك -إن شاء الله- كن مستعدًا.

أخذت أرقب سيارته وهي تغادر مثيرة لأوراق شجر متناثر هنا وهناك، والأفكار تعصف بي كما عصفت السيارة بهذه الأوراق،

فأي مصيبة أوقعت بها نفسي؟

وهل سأخرج منها سالمًا؟!

فلست أعرف (أبو حاتم) جيداً.

انتزعني من أفكاري صوت يقول:

- (محمد)، أين كنت يا رجل؟

التفت لأجد (عذيب) بابتسامته العذبة، يشير إليّ لكي أدخل إلى المعهد.

دلفت معه إلى الداخل، ووجدنا (جريج) في المدخل، يقول:

- ممتاز، لقد كنت أبحث عنكما.

والتفت نحو (عذيب) وأشار إليه قائلاً:

- اذهب إلى مكتب (سالي) المرشدة الأكاديمية، فلديها أوراقك وسترشدك إلى قاعتك الدراسية.

وأشار نحوي وهو يقول بعينين جامدتين:

- (محمد)... اتبعني!

أوجست خيفة في نفسي، فبعد انتصاري المزيف في المرة السابقة، يبدو أنه قرر أن ينتقم مني!

قادني إلى مكتبه في الدور الخامس، ودلفنا إلى الداخل.

كان مكتبه صغيراً، فخلف طاولته البيضاء العريضة توجد خريطة ضخمة للعالم، وتقبع آلة تسجيل في إحدى زوايا الغرفة.

جلس خلف الطاولة وأشار لي كي أجلس أمامها وهو يقول:

- إجاباتك في الاختبار ممتازة، ونجحت في الحصول على المستوى (المتقدم)، ولكن لسوء الحظ لقد أقفلنا هذا المستوى لنقص في عدد الطلاب. فأنت بالخيار الآن. إما أن تنضم إلى المستوى الأقل منه (ما فوق المتوسط ٢) وأعتقد أنه سيكون سهلاً نوعًا ما، أو تقبل التحدي وتدخل المستوى الأعلى منه وتنضم إلى دورة الإعداد لشهادة كمبريدج (ACE).

وأنا أنصحك بأن تقبل التحدي.

أسقط في يدي، فلم أكن أدري ما أقول، فمن ناحية أعجبتني كلمة (التحدي)، ولكني كذلك كنت أخطط أن أمضي الأسابيع الأُوَل في (سياحة دراسية!).

فالتفت إليه وقلت:

- بصراحة لا أدري، فأنا كنت أخطط أن يكون وجودي هنا للاستمتاع والتعلم، ولا أبحث عن شهادة ما، بالإضافة إلى أني لا أعتقد أن أحدًا سيعترف بهذه الشهادة في بلدي!

يبدو أنني أصبحت في نظره كثير التطلب! لذا راجع أوراقه ورفع عينيه وبغير اقتناع قال:

- لا مشكلة، نستطيع أن نجعلك تنضم إلى كلا المستوين، ففي

الصباح ستدرس في المستوى (ما فوق المتوسط ٢)، وبعد الظهر تنضم إلى دورة الإعداد للشهادة، ما رأيك؟

- يبدو حلاً مثاليًا.

خرجت من مكتب (جريج)، ونزلت إلى صالة الاستقبال، وجلست على أحد الكراسي المتناثرة أنتظر خروج (عذيب).

لم أكن أعرف أحدًا، ولم يتلفت إليّ أحد...

لذا...

وكعادة السعوديين في الأماكن العامة.

أخرجت (جوالي).

وبدأت أعبث بأزراره.

* * *

أشارت إليّ امرأة كانت تقف خلف مكتب الاستقبال، وهي تقول:

- هل أنت (محمد)؟

أومأت برأسي أن (نعم).

- لو سمحت تفضل هنا.

تقدمت نحو المكتب في حيرة، فلست أدري من هذه المرأة، وماذا تريد؟

قالت لي:

- أنا (سارا)، المسؤولة عن سكن الطلاب، اتصل بي المسؤول عن الطلاب العرب، يشتكي من جعلك تسكن مع (أدموند)، وطلب أن نغير لك السكن. وبعد أن اتصلت بـ (أدموند)، اعتذر على سوء استقباله لك، ويعدك بمزيد من الاهتمام. فهل مازلت تريد السكن عنده، أم تريد أن تغير؟

كانت مفاجأة كبيرة، فهذه المرأة تعرف كل شيء عني وعن (أدموند)، ولكني لم أخبر أحدًا بما حدث !! لم أكن أدري بماذا سأجيبها، غير أنها عاجلتني قائلة:

- إنني أتفهم عدم رغبتك بالمكوث عنده خصوصًا بعد الاستقبال الذي حظيت به، لكن بإمكانك أن تجلس لدى (أدموند) لمدة مؤقتة، وسوف أرتب لك مع المسؤول عن العرب لدينا سكنًا أكثر راحة، ما رأيك؟

- لا بأس... موافق.

عادت تجري مكالماتها وعدت إلى مقعدي أتأمل ما حدث!

لابد أنني أحلم، لم يكن يخطر لي ببال أن يكون (أبو حاتم) بهذه القوة والقدرة على التأثير في هذا البلد!

انتزعني من أفكاري صوت (عذيب)، الذي خرج للتو من محاضرته، وهو يقول لي:

- ماذا بك؟ تبدو مهمومًا.

- لا شيء... فقط كنت أفكر.

وبدأ يتحدث عن شعوره عن المستوى الذي يدرس فيه، وأنا أحاول جاهدًا أن أركز فيما يقوله، غير أن تركيزي اتجه نحو شاب يمشي أمامي متوجهًا إلى الاستقبال، شعر طويل، وجه حليق، سلاسل تتدلى على صدره المكشوف، للوهلة الأولى تظن أنه من دول (أمريكا الجنوبية)، غير أن سحنته العربية كانت واضحة للعين المدققة.

التفت نحو (عذيب) الذي يبدو أنه سألني سؤالاً ما، لم أكن أدري ماهو، وقلت له مشيرًا بِطَرفِي ناحية الشاب الواقف:

- انظر.. إنه عربي... ومن السعودية!

- من؟ هذا؟.. يبدو أنك تحلم، إنه برازيلي من رأسه إلى أخمص قدميه، وأيضًا.. انظر إلى من معه.

أعدت النظر مرة أخرى، لأجده يحادث ثلاثة يبدو أنهم من تلك المنطقة، رحت أتأمله مرة أخرى، غير أن (سعوديته) كانت واضحة جدًا، ابتداءً من طريقة وقوفه، وانتهاءً بهاتفه الجوال الذي أخرجه من جيبه لغير حاجة!

غير أن (عذيب) كان متمسكًا بموقفه، لم أجادله كثيرًا، وبقينا نتحدث في أمور متفرقة، ثم خرجنا لتناول الغداء، عندما

اصطدمت بشخص لم ألمحه في البداية، التفتّ نحوه وأنا أقول بالعربية:

- آسف.

- لا عليك.

فوجئت بأنه لم يكن سوى صاحبنا الذي كانت المفاجأة تغطي وجهه وهو يقول:

- ما أدراك أني عربي!

- واضح، كل شيء يشير إلى ذلك!

يبدو أن كلامي لم يكن يروق له، عندما كشفت الغطاء الرقيق الذي كان يستتر به، ولست أدري لماذا يخبئ حقيقته وانتماءه؟

مددت يدي لأصافحه قائلاً:

- معك (محمد)، من الرياض.

- (طلال)، من السعودية!

قالها بصوت منخفض وكأنه يخجل من حقيقته!

اقترب منّا مجموعة من الطلاب، وهم يلوحون له ويقول أحدهم:

- (جاك)!.. هل ستأتي معنا للغداء؟ سنذهب إلى المطعم اللبناني.

(جاك !!)، ومطعم لبناني!!

التفت (طلال أو جاك) نحوي ويقول:

- لقد سميت نفسي هنا بـ (جاك) أسهل في النطق، وحتى لا يعرفوا أني عربي!!

- وهل هناك مشكلة في معرفة ذلك؟

قال لي وهو يغمز بعينه، ويبتسم بتبجح:

- ربما، وخصوصًا عندما تذهب إلى أماكن صاخبة آخر الليل، مع هذه أو تلك!

خرج مع مجموعته، بعد أن شيعته بنظرات مملوءة بالازدراء والشفقة، ففي نظري أن فقدان الهوية هو أشد الأمراض التي تفتك بشبابنا.

توجهت مع (عذيب) إلى مطعم تركي، وتجولنا في المدينة، وعند عودتنا مررنا بأحد المطاعم، ووجدت (طلال أو جاك) يعبُّ من كأس (بيرة) كانت أمامه، ويحضن بيده الأخرى حسناء برازيلية، وأشار إليَّ عندما رآني وهو يترنح وينفث دخان سيجارته، ويقول عندما لمح الاستنكار في عينيّ:

- (تعال وسع صدرك)، واترك عنك (الطوع)، (فالعيال) سيأتون بعد قليل!

كانت الساعة الخامسة مساءً، وأنا أقف عند باب المطعم،

فهل أدخل هنا؟

وأمضي بقية الأمسية مع (العيال)؟

متنقلاً من حانة إلى أخرى حتى ينقضي الليل؟

أليس هذا هو مفهوم الغربي لـ: (الاستمتاع بالوقت!)

أم أعود إلى المنزل واستعد للذهاب مع (أبو حاتم) إلى المسجد؟

ومن ثم إلى منزله حيث بعض (الإخوة) يجتمعون هناك؟!

ابتسمت من سخرية الموقف...

من قال إن الظروف تحدد مصيرنا؟

فلم أكن مجبرًا...

وكل الأبواب مفتوحة أمامي...

و أملك كل الخيارات...

حددت ما أريد...

واخترت...



الخطوة الأولى



مقولة نيوزيلندية

Ka mate kainga tahi, ka ora käinga rua

هناك أكثر من طريق لتحقيق الهدف

على ضفاف نهر آفون جلست أتأمل غروب الشمس، وهي تعانق قمم الأشجار وتودعها، وتصبغ الأفق بلونٍ أرجواني بديع، أرهفت سمعي لغناء الطيور فرحةً بعودتها إلى أعشاشها، وإطعام صغارها، وأرقبُ القمر يصحو من إغفاءته ليضيء فضاء المدينة، وهبت نسمة باردة لذيذة تداعب برفق وجه المدينة.

كان الجو ساحرًا للغاية.

انتزعني من هذا المنظر البديع صوت رنين مزعج، بحثت عن مصدره وأنا ألتفت يمنة ويسرة، عندما اكتشفت أن مصدره هو هاتفي المحمول، أخرجته وأنا مقطب الحاجبين، فلم أكن مستعداً لمقاطعة تلك الحالة التي كنت أعيشها.

كان المتصل هو أخي، الذي استيقظ من نومه للتو، فمازال الوقت هناك هو الثامنة والنصف صباحًا، وهو يقول بصوت مشبع بالنوم:

- صباح الخير (حمادة!)، كيف الأمور؟

(صباح !!) نظرت إلى ساعتي التي أشارت إلى الخامسة والنصف مساءً، والتفت إلى الشمس التي تقبل الكون قبلاتها الأخيرة.

تحدثت معه عن كل شيء تقريبًا، عن (أبو حاتم)، المعهد، وحتى (أدموند)! كان أخي ـ وهو الضليع في أمور السفر ـ يحذرني من

التورط مع أي جماعة أو تنظيم، ويمارس دوره كأخٍ أكبر في التوجيه والنصح !، وقلت له مازحًا:

- ما رأيك بأن تأتي، سأبحث لك عن زوجة أخرى!

- (هاه!!)... فكرة رائعة!، (بس لا تعلم أم (......)).

أنهيت الاتصال وتركت أخي هناك يستقبل صباحه بأحلام وردية، بينما أستقبل مسائي هنا بتوتر، مترقبًا ما سيسفر عنه لقائي مع (أبوحاتم) وبقية (الإخوة).

حملت حقيبتي وتوجهت نحو محطة الحافلات الرئيسة، فحتى أصل لبيت (أدموند) لابد أن أستقل الحافلة رقم (١٠ أو ١٣).

جلست على أحد الكراسي أنتظر الحافلة التي أشارت لوحة المراقبة أنها قادمة بعد خمس دقائق. كان رصيف الانتظار شبه ممتلئ، وحافلات تأتي وأناس يصعدون، وآخرون ينزلون، حركة دائبة، ودوامة تدور.

العجيب في الأمر أن ركوب الحافلات لا يقتصر على طبقة معينة من الناس، فالكل يركبها، فتجد ذوي البدلات الرسمية والحقائب الجلدية الفاخرة، والطلاب، والعجائز، بل حتى المشردين!

أقبلت الحافلة في موعدها، وجلست في آخر مقعد ـ مكاني المفضل ـ، وبعد الانطلاق حاولت أن أركز في الطريق، وأنظر إلى معالم المدينة، أبحث عن منظر مألوف، أو علامة تساعدني في تحديد موقعي، لكني للأسف لم أستطع.

كانت الحافلة تقف كل مدة عند علامات محددة للوقوف، وأناس يغادرون وآخرون يركبون وأنا قابع في مقعدي، لا أدري أين أنا.

كنت وسمت المنطقة المجاورة لبيت (أدموند) بمجمع تجاري، ولكن لا أثر له، فهل هذه الحافلة تسلك طريقًا آخر؟ أو ربما ركبت حافلة أخرى.

كان عدد الركاب يتناقص بشكل كبير، فبعد أن كانت تغص بهم، أضحى عددهم لا يتجاوز أصابع اليدين.

توقفت الحافلة أمام مجمع تجاري، بدا مألوفًا لديّ، توجهت نحو السائق وقلت:

- هل نحن في منطقة (بابنوي Papanui)؟

- أي مكان تريد منها؟

قلت له اسم المتجر الكبير، فأشار أنه سينزلني هناك، فلما نصل إليه بعد، وتحركت الحافلة وبعد مدة وجيزة توقفت الحافلة

مرة أخرى وصعدت امرأة شابة ومعها طفلتان، كانت الأولى تقريبًا في السادسة من عمرها، والأخرى في الثالثة.

جلسن على كرسيين متقابلين، أخرجت الأم كتابًا وبدأت تقرأ، بينما شرعت طفلتها الكبرى تحاصرها بالأسئلة:

- ماما، ما مكتوب في هذه اللوحة؟

تركت الأم الكتاب الذي بين يديها، والتفتت خلفها إلى اللوحة التي أشارت ابنتها لها، وعادت وقالت:

- إنها لوحة إرشادات عن الحريق.

وتعود لكتابها، ثم تعود الابنة لتسأل:

- لماذا هي مكتوبة باللون الأحمر؟

تترك الأم كتابها مرة أخرى، وتشرح لابنتها لماذا، ثم تعود لكتابها، وتسأل الابنة مرة أخرى عن سبب تعليقها فوق باب الخروج من الحافلة، وتعود الأم تشرح ذلك. فاقت أسئلة الفتاة الصغيرة عشرين سؤالاً منذ أن ركبن الحافلة، والأم تترك كتابها وتلتفت ثم تشرح لها وتعود للقراءة مرة أخرى، انتظرت أن تغضب الأم أو أن تتجاهل السيل المنهمر من الأسئلة، خصوصًا بعد أن انتشرت الحماسة بين الفتاتين كل منهما تريد أن تستأثر بالنصيب الأوفر من إجابات الأم، وأمهما تجيب بلا تأفف ودون نظرات من نوع

(تراكم فشلتونا)، أو تحول الموضوع إلى (إذا كبرتو تعرفون)، أو (أنا مشغولة)، أو(اسكتي أنتي وياها).

توقفت الحافلة، والتفت السائق نحوي وهو يقول:

- يا صاح، يمكنك أن تنزل هنا.

ترجلت من الحافلة وأنا أشير إليه بيدي شاكرًا، وتوجهت نحو بيت (أدموند)، كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً، عندما قابلني (أدموند) خارجًا من المنزل، وهو يبتسم بابتسامة جعلتني أشعر بالغثيان.

إن كان هناك مثال للقبح المطلق فبالتأكيد هاهو أمامي متجسد في هذه الابتسامة، أسنان صفراء معوجة متهالكة، شفاه سوداء متآكلة من أثر الدخان، أنفاس لا تجاريها إلا رائحة أنهار الحاير (جنوب الرياض)،كدت أعود أدراجي وأفرغ كل ما في معدتي من التأثير الذي أحدثته ابتسامته وأنفاسه، وتمنيت (كمامات الكيماوي) التي انتشرت إبان أزمة الخليج، فهذا هو الوقت المناسب لاستعمالها.

قال (أدموند) مظهرًا حماسة منقطعة النظير:

- العشاء جاهز، سوف أخرج الآن وسأعود متأخرًا، فلدي درس في (الرقص!).

لم أستطع أن أمنع ابتسامتي، (رقص)... !! أنت يا (أدموند) ترقص؟

حقًا شر البلية ما يضحك، كان ينظر إليّ بحماسة، وفكه الأسفل يدلى فيما يشبه الابتسامة، ولعابه يسيل من شفته السفلى، وينتظر ردة فعلي، حاولت أن أتخيل برميل القبح هذا يتحرك برشاقة الفراشة، أو يدور بخفة النحلة، لكن خيالي الواسع لم يسعفني، فلم أملك إلا أن أقول له:

- بالتوفيق لك.

في تمام السابعة مساء، خرجت من المنزل لأجد (أبو حاتم) في الخارج ينتظرني، توجهت نحو السيارة وأنا ألتفت يمنة ويسرة، فكانت المنطقة خالية من البشر، والظلام يلف المكان عدا نور باهت يصدر من أعمدة الإنارة المتناثرة في الشارع الموحش، وصوت المقرئ الشيخ عادل الكلباني المنبعث من السيارة الواقفة يعطر الأجواء، ويضفي على المكان الموحش بعضًا من الألفة.

ركبت مع (أبو حاتم) الذي لا يزال مرتديًا الزي السعودي، وانطلقنا نجوب شوارع المدينة الفارغة متجهين للمسجد، وعندما دخلناه كان الوقت لا يزال مبكرًا، فمازالت هناك ١٥ دقيقة حتى موعد الأذان، والمصلون يتوافدون أفرادًا وجماعات، وعندما حان موعد الأذان، التفت ناحيتي (أبو حاتم) وقال:

- ما رأيك أن تؤذن؟

- ماذا...؟ أليس هناك مؤذن للمسجد؟

ابتسم وهو يقول:

- بالطبع هناك مؤذن للمسجد، ولكنه غير موجود الآن، وكنت سأؤذن أنا، ولكني قلت في نفسي ربما تريد أن تؤذن، مارأيك؟

في البداية لم أكن متحمسًا للفكرة، وخصوصًا أني مازلت أخوض في أيامي الأولى هنا، وقد يُعد أذاني في هذا المسجد إعلانًا لانتمائي للتوجه الذي يحمله القائمون عليه، والذي أجهل كل شيء عنه.

لكن بصراحة... كانت الفكرة مثيرة جدًا، أن تؤذن في المسجد الوحيد في المدينة، وفي ثاني يوم لك فيها، لذلك حزمت رأيي والتفتّ وقلت له متبسمًا:

- هل أؤذن بالعربي أم بالإنجليزي...؟!

كتم (أبو حاتم) ضحكة كادت تفلت منه، بينما توجهت إلى مكبر الصوت، رمقني عدد من المصلين الجالسين بأعينهم، وأحدهم يبتسم مشجعًا، ربما شعر بمدى التوتر بداخلي فأراد طمأنتي بابتسامة.

شحذت قدراتي الصوتية المتواضعة بنحنحة وأنا أدير مكبر الصوت الداخلي إلى وضع التشغيل، واشتعل معه كل توتر بداخلي، حاولت أن أسيطر عليه بنفس عميق والشد على قبضة يدي، ولم أدع لنفسي الفرصة للمزيد من التمادي فسرعان ما شرعت بالأذان.

كانت الكلمات تنساب مني بسهولة وتأثيرها يهز كياني،

كنت الوحيد الذي ينادي أكثر من ٣٠ ألف مسلم،

وفي مدينة لا تعرف أي معنى لهذا النداء،

ولا أهميته.

عندما أنهيت الأذان كنت أشعر باستقرار نفسي رائع، وسلام يغمر جوانحي، وطمأنينة تعم أركاني.

أنهينا الصلاة، وتوجهنا إلى منزل (أبو حاتم)، وأنا مازلت في توجس من مفهوم (الإخوة) لديه.

كان الوقت يقترب من الثامنة والنصف مساء، والشوارع خالية من السيارات، عندما توقفت السيارة أمام منزل مظلم إلا من بصيص نور يخرج من نافذة كبيرة. كانت المنطقة هادئة عندما ترجلنا من السيارة، أرعبني الظلام المحيط بالمنطقة، لم تنجح أعمدة الإنارة في تبديده، وأفزعني صوت نباح كلب في آخر

الشارع، وتقدمنا نحو باب المنزل الذي كان مفتوحًا عندما دفعه (أبوحاتم) بيده، ودلف إلى الداخل، وعندما وضعت قدمي في داخل المنزل، شعرت حقًا بما يعنيه أن تمشي بقدميك إلى عرين الأسد، فها أنا أدخل منزل (أبو حاتم)، والملتقى الرسمي لـ (الإخوة)، محاولاً أن أحافظ على ابتسامتي على شفتي، لكيلا تعكس ما يعانيه داخلي من اضطراب.

كان الباب يفتح على غرفة واسعة، بها نافذة كبيرة تطل على حديقة جميلة، كانت الغرفة مفروشة، مع جلسات عربية أرضية، تغطي جانبين من الغرفة، بينما تغطي أحد الجدران مكتبة ضخمة، ومجلدات وكتب تملأ أرففها الكثيرة، لمحت فيها (تفسير ابن كثير، صحيح البخاري ومسلم، بالإضافة إلى كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب، وكتاب لمحمد أمان!).

كانت الغرفة تفضي إلى غرفة أخرى انبعث منها صوت قراءة للقرآن، و(أبو حاتم) يقول لي:

- بعض (الإخوان) يصلون، استرح حتى ينتهوا.

جلسنا على الجلسة الأرضية، وأنا أتأمل الغرفة (العربية) في كل شيء، إلى أن انتهى (الإخوان) من صلاتهم، وتوجهوا نحونا، و(أبوحاتم) يعرفهم بي، ويعرفني بهم:

- عبدالعزيز، من السعودية (في أواخر العشرينيات، أسمر، شعر كثيف، وجه حليق).

- فاضل، من إحدى الدول الخليجية (في أوائل العشرينيات، لحية كثيفة، شعر قصير، وابتسامة جميلة).

- أبو آمال، من الجنوب (شاب هادئ، قمحي البشرة، ذو لحية مشذبة،وشعر ناعم).

- حسن، من الشرقية (شاب مرح، نظارات أنيقة، ابتسامة رائقة، وجسم رياضي).

جلسنا نتبادل أطراف الحديث، عن رحلتي والسفر، بل حتى عن (أدموند) الذي اتضح أنه معروف لدى الجميع! ومما قالوا لي إن (وليد) سيأتي وسيساعدك في إيجاد سكن أفضل!

كان (الإخوة) يتوافدون زرافات ووحدانا إلى منزل (أبو حاتم)، والكل يعرف بنفسه، وذاكرتي تعمل بأقصى سرعتها لكي تربط بين الأسماء والأشكال، هل كان ذاك الشاب الطويل، محمد أم أحمد؟ ذاك الرجل في الأربعينيات هل هو صالح أم أبو صالح؟ الرجل ذو النظارات الكبيرة أبو حسام، وذلك الشاب ذو (الفروة) أهو جعفر؟!

كانت مجموعة من الجنسيات منها العربي والأجنبي، فكان هناك سعوديون، عمانيون، إماراتيون، فلسطينيون، نيوزلنديون، بل حتى كوريون وماليزيون!

كان الإسلام هو رابطهم الوحيد، لم يكونوا يفرقون بين (أخواني أو جامي) بل لم يكن يمنع من حضورك كونك (صوفيًا، أباضيًا، شيعيًا، إسماعيليًا... بل حتى نصرانيًا!).

امتلأت كل غرف البيت الثلاث بالشباب، واجتمع بعضهم حول قدر كبير في (كراج) السيارة يطبخون وجبة العشاء، والحديث يدور في كل المواضيع: رياضية، سياسية، اقتصادية. يبتسمون ويضحكون ويتحدثون كالعائلة الواحدة وإن اختلفت مشاربهم واهتماماتهم، فمنهم طلاب يدرسون في الجامعة، وبعضهم مهندسون في دورة تدريبية، وكذلك دارسون للغة الإنجليزية، وبعض الأطباء في دورات خاصة بهم، والعديد من السياح.

التفت نحوي (حسن) وهو يقول مبتسمًا:

- كيف وجدت نيوزيلندا؟

- لا بأس...، ولكني لم أكن أتوقع أن أجد كل هذا.

- أتقصد.. الشباب و(أبوحاتم)؟

- تقريبًا... وكذلك (رز أبوكاس) و(الذبيحة المعلقة)، بل حتى (شطة كريستال)!.

كاد (حسن) يقع من الضحك، وهو يشير حوله قائلاً:

- أنت لم تر شيئًا بعد، فلقد جلبنا السعودية معنا.

كنت أتحدث مع مدرس (أمريكي) قبل أن أسافر، وكان ممّا قال: إني كنت أتعجب منكم أيها السعوديون فبدل أن تندمجوا مع المجتمع الجديد وتعيشوا فيه، أجد أنكم تخلقون لكم مجتمعًا سعوديًا خالصًا في قلب الدولة التي تعيشون فيها.

وبالفعل، كنت أشعر بأني كنت في بلدي، فكل ما أراه هنا يجعلني أشعر بأني لم أغادر موطني.

دخل شاب في أوائل العشرينيات من العمر، ملتحيًا، ويتبسم وهو يحيي الشباب، فيمازح هذا ويعانق ذاك، وعندما وصل ناحيتي، نظر إلي يتفحصني بعينيه الذكيتين المختبئتين خلف زوج من العدسات اللاصقة، ومد يده مسلمًا وهو لا يزال محتفظًا بابتسامته الودودة:

- مرحبًا بك، أنا (وليد).

.. مهلاً.. لقد مر عليّ هذا الاسم.. أليس هو "(وليد) سيأتي وسيساعدك في إيجاد سكن أفضل".

كان (وليد)، شابًا جميل المحيا، بهي الطلعة، تزيد لحيته وجهه نورًا، وابتسامته تغمرك بالهدوء والسعادة.

عندما يقولون (احرص على الانطباع الأول، وخصوصًا في الدقائق الخمس الأولى) فثق بأنهم على حق في ذلك، كان انطباعي الأول عن (وليد) إيجابيًا، واستمر كذلك حتى يومنا هذا!

التفت (حسن) ناحية (وليد) الذي جلس بجانبي قائلاً له:

- وليد... محمد يحتاج (فزعتك)؛ لأنه ساكن عند (أدموند).

- (أدموند بذاته.. من الّي داعي عليك؟ ولا يهمك بكرة - إن شاء الله - أكلم لك (هيلاري) أم العرب هنا، وبتدبرك هي).

(هيلاري).. و(أم العرب)، يبدو أن استغرابي من ذلك كان واضحًا على تقاسيم وجهي، عندما سمعت ضحك (حسن) وهو يقول لي:

- لا تستغرب... بالفعل هي تقريبًا (أم العرب)، فقد زارت كثيرًا من الدول العربية، وتتحدث بعض العربية، وتحب دومًا أن تساعد العرب هنا، بل وتطبخ كذلك بعض الأكلات العربية، و... فوق ذلك هي تعامل (وليد) تقريبًا كأحد أبنائها...!

التفتُّ نحو (وليد) - محاولاً أن أتظاهر باللامبالاة، غير أن دهشتي كانت واضحة - الذي قال مبتسمًا:

- (لا تناظرني كذا... عمرها حول الستين سنة!)

غمز (حسن) بعينه، وهو يقول ضاحكًا:

- ربما كانت في الستين، ولكنها أرملة ولديها الكثير من المال، ويبدو أن (بعض الناس) ناوي يرجع لبلده مليونيرًا، وفي النهاية... الشرع ما حرم الزواج (بأهل الكتاب).

لم أتمالك نفسي من الضحك، وأنا ألمح نظرات (وليد) وهو يلمح لـ (حسن) بألا يتمادى أكثر، فمازلت غريبًا بالنسبة إليهم.

كانت الأمسية رائعة، ووجبة (القابولي) العمانية زادتها روعة، وحديثي مع (وليد) و(حسن) حول المدينة كان مفيدًا جدًا.

بدأ الشباب في التناقص، والذهاب إلى منازلهم، والبعض خرج إلى أماكن أخرى!

كنت محرجًا بعض الشيء وخصوصًا أن الوقت أصبح متأخرًا ولا أدري كيف سأعود للمنزل، بعد أن خرج (أبو حاتم) لإيصال بعض الشباب. عندما التفت (وليد) نحوي وهو يقول:

- متى تريد أن نذهب؟

ابتسمت محرجًا، فلم أقض مع (وليد) سوى ساعة أو تزيد، وها أنا أقتحم حياته وبشكل سريع، وقلت:

- متى ما تريد؟ أخشى فقط أن أكلف عليك.

- عيب عليك يا رجل، نحن إخوان.

ركبت مع (وليد) في سيارته الرياضية، وانطلقنا نحو المنزل، كان وليد يتحدث طوال الوقت عن الغربة، وكيف تتكيف معها، وقال:

- هل تعرف يا (محمد) من أول ما وصلت هنا، منذ أكثر من سنتين

وحتى الآن، مررت بثلاث مراحل لكي أتكيف مع الجو المحيط بي.

فعندما وصلت هنا كنت منبهرًا بكل شيء، بطريقة القيادة، بالنظام المتبع هنا، بلطف الشعب، بالطبيعة، بل حتى برائحة المكان والأصوات المنبعثة من كل مكان، لقد عشقت هذا المكان حتى الثمالة. كنت أقارن بين احترام الأنظمة وشعبها المنظم، وبين الفوضى في بلدي، وعدم احترام الأنظمة، ومراعاة الآخرين. كنت أعتقد أني لن أعاني من أية مشاكل في العيش هنا، فكل شيء رائع وممتع للغاية، كنت غارقًا حتى أذني في (الحماسة). حتى بدأت المرحلة الثانية.

فبعد مدة من الزمن، بدأت أشعر بالملل، فلم أعد أجد الحماسة في الأشياء التي كانت تثيرني سابقًا، وبدأت في المقارنة بين ما أراه هنا وبين ما عشته في بلدي، وكيف أن هناك أمورًا لا أتقبلها دينيًا وعقليًا وقد نشأت عليها، كالعفة والطهارة، أراها تنتهك يوميًا أمام ناظري. وانهارت القشرة الرقيقة من الحماسة عندما بدأت أدقق في خلفية هذه الحضارة الباهتة، وبين حضارتنا العميقة. وافتقدت كل حس فكاهي لدي، وبدأت المشاكل الصغيرة تكبر في نظري، فعندما تتعطل سيارتي أغضب على هذا البلد وأهله، وفي دورتي الدراسية أصب جام غضبي على مكتب التسجيل على أشياء تافهة، وكنت أعاني من إغلاق المحال بعد

السادسة مساءً ,كنت أخوض دوامة (الصدمة الحضارية)، التي وللأسف استمرت لمدة حتى انتشلتني المرحلة الثالثة منها. والتي بدأت عندما حاولت أن (أتفهم) هذه الثقافة، وكيف أنها (منطقية) بعض الشيء، بالنسبة إليهم، وبدأت أفرق بين (أنا، وهم)، وأصبحت قراءة الآخرين أسهل قليلاً، خصوصًا عندما تفهم المنطق الذي يتحركون منه، وقررت بأني مادمت هنا فيجب أن أستفيد بقدر ما يمكن...

كان (وليد) يتحدث بحماسة، كأنما يريد أن يختزل خلاصة تجارب السنين التي أمضاها هنا في عدة دقائق، وكنت ممتنًا له، فمن النادر أن تجد من يفضي إليك بخلاصة تجاربه وأفكاره، وقد ساعدتني هذه الفوائد، في التكيّف السريع مع البلد وأهله.

وصلنا إلى المنزل، ووليد يقول لي:

- سوف أكلم لك (هيلاري)، وسأعطيها رقمك، لكي يسهل التنسيق بينكما.

- شكرًا لك.

عندما ترجلت من السيارة، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة. دخلت المنزل الذي كان غارقًا في الظلام الدامس، وأنا أحاول جاهدًا أن أتفادى الاصطدام بما قد يعيقني، وأذكر نفسي بكل الأدعية المشروعة، وأشق طريقي بصعوبة وسط الظلام

الكثيف، عندما خرج لي (أدموند) بمنامته، وهو يحاول جاهداً أن يسوي شعره المتطاير، ويقول وهو يغالب تثاؤبه، وأنا أغالب لأكتم أنفاسي لكي لا أشم رائحته العطنة:

- مساء الخير، هل تريد عشاءً؟

- لا .. وشكرًا، كيف كان (رقصك)، هل أبهرت جميع النساء؟!

تندمت لأني ألقيت بهذه الدعابة؛ لأنه عندما سمعها انفجر ضاحكًا، وغمر وجهي رذاذه المتطاير وأنفاسه الكريهة التي كادت تجهز على بقية (القابولي)، واضطررت أن أغسل وجهي لأكثر من سبع مرات!

عندما توجهت لغرفتي التي يلفها الظلام، أشعلت ضوء الغرفة وغمر النور أرجاءها، تذكرت كم كنت غارقًا في ظلامٍ دامس عند وصولي إلى هذه المدينة، وأن معرفتي بـ (أبوحاتم) و(وليد) وبقية الشباب كان النور الذي أضاء طريقي، وبدد كل أثر أحدثه الظلام الذي انتشر بين أضلعي.

خلدت إلى فراشي، وأنا أنتظر مجيء النوم ليأخذ روحي المرهقة، ويطير بها عبر فضاءات الكون، ويعبر بها حواجز الزمان والمكان، لكي أمتع نفسي ولو للحظات بلقاء من أحب، وما أحلى اللقاء حتى ولو على سفينة الأحلام!



على مقاعد الدراسة

عدد من الأشخاص يتحدثون



مقولة نيوزيلندية

He kura tangata, e kore e rokohanga; he kura whenua ka rokohanga

المشاعر تتبدل، والأرض باقية

محمد (يتحدث)

كان الصباح باردًا للغاية، والجو مُلبدًا بالغيوم، والسماء تنذر من تحتها بوميض يبرق كل هنيهة، الكلُّ متغمغمٌ في الملابس الثقيلة، والمظلات وضِعت في متناول اليد، ليسهل استخدامها عندما تفتح السماء أبوابها.

كنت أحث الخطى نحو المعهد، فبالرغم من كل الأحداث الماضية، فمازال هذا هو يومي الأول على مقاعد الدراسة. كانت النظرات تتجه ناحيتي بتعجب، فأنا الوحيد الذي يمشي دون أن يحمل معه مظلة تقيه من المطر الذي يتوقع أن ينهمر في أية لحظة، كنت ألمح تعجبًا واستنكارًا في العيون، كنت كلاعب دخل الملعب من دون حذائه الرياضي، أو حارس مرمى نسي أن يلبس قفازه.

تحاشيت النظرات اللاذعة خصوصًا من كبار السن،

ولكن وعلى حين غرة...

انهمر المطر بقوة،

لم يبدأ كما هو الحال عندنا، برش خفيف، ثم يزداد قوة إلى الذروة ثم يخف تدريجيًا.

بل كان (شقًا من السماء) كما يعبر عنه كبار السن، لم أستطع أن أواصل المسير، لذا توقفت أستظل بإحدى العمارات المقابلة للمعهد، إلى أن يخف المطر.

أشارت الساعة إلى الثامنة والربع، بعد خمس دقائق ستبدأ المحاضرة الأولى، كانت بوابة المعهد على مرمى بصري، ولكني لا أستطيع الوصول إليها، فلو حاولت لوصلت إليها وملابسي تقطرُ ماءً، كانت مجازفة لم أكن مستعدًا لخوضها؛ هل جربت أن تسبح بكامل ملابسك؟ وحقيبتك معك؟!

طالت مدة انتظاري، واقتربت الساعة من الثامنة والنصف، لقد بدأت المحاضرة، ولم أغادر مكاني، ولم يخف المطر، بل يبدو أنه في ازدياد!

بالرغم من تأخري، وانتظاري الذي طال، إلا إنّي كنت منتشيًا وأنا أتأمل وأنصت مستمتعًا بصوت قطرات المطر، وأصغي لغنائها الجميل، الذي يبعث في داخلي رجفة لذيذة، كان هذا هو درسي الأول: اقرأ تقارير الطقس قبل أن تخرج، واحمل مظلتك دائمًا.

- (أول مرة تشوف مطر؟!)

انتزعني هذا الصوت من تأملاتي، والتفتّ خلفي لأجد (طلال) يبتسم، ويكمل قائلاً:

- في هذا البلد، احرص على حمل مظلتك كما تحرص على محفظتك.

وجدت عينيّ تتوجهان ناحية مظلته، وأنا أجري حساباتي بسرعة، كانت مظلته كبيرة نوعًا ما، لذا مشيت معه تحتها، كانت

العيون ترقبنا بشك وتعجب! فمن المألوف أن تجد امرأتين أو رجلاً وامرأة تحت مظلة واحدة، أما أن تصادف رجلين.. وتحت مظلة واحدة، سيكون هذا دافعًا لا بأس به للحكم بميولهما!!

لم ألق بالاً لما قالته تلك العيون، فكنت قلقًا بشأن المحاضرة التي بدأت منذ عشر دقائق، وأنا الذي يحب أن يحرص على الانطباع الأول، فهو يغنيك عادة عن مئات الكلمات.

أسرعت أحث الخطى ناحية القاعة الدراسية، التي كانت مغلقة الباب، وهممت أن أقرع الباب، وأنا أتنفس بعمق، محاولاً أن أطرد كل توتر بداخلي، فهذه هي اللحظة الحاسمة، فسأقضي مع من بالداخل مدة لا بأس بها من حياتي، ولابد أن أترك انطباعًا حسنًا... يدوم للأبد!

طرقت الباب بهدوء، مقاومًا شعورًا بالرهبة، محاولاً أن أبقي ابتسامتي على شفتي، عندما وصلني صوت ضعيف ينادي:

- ادخل.

ابتلعت ريقي بصعوبة، ومددت يدي محركًا قبضة الباب وبرودتها تبعث داخلي قشعريرة زادت من حدة توتري، دفعت الباب إلى الداخل بهدوء، وانكشفت غرفة واسعة، كان هناك خمسة طلاب متحلقون حول طاولة كبيرة شغلت حيزًا كبيرًا من الغرفة،

جلسوا مواجهين للوحة بيضاء وقفت أمامها امرأة في منتصف الأربعينيات، التفتت ناحيتي وقالت بابتسامة:

- مرحبًا، هل أستطيع مساعدتك؟

- أنا .... محمد، وأعتقد أنني طالب لديكم... هنا، وآسف للتأخير، فللمطر... دور في ذلك.

كنت أتكلم بسرعة شديدة، سببتها رهبة الموقف ومحاولة التخلص من ارتباكي، ولكن يبدو أنهما مع تأخري، جعلوا من كلماتي مجرد همهمة لم تُفهم.

فقالت الأستاذة وهي تجاهد لتحافظ على ابتسامتها:

- معذرة، لم أسمع جيدًا ما قلت.

ابتسمت محرجًا، وأعدت ما قلته، محاولاً التركيز فيما أقوله، وقلت:

- معذرة، فأنا متوتر قليلاً، فعلاوة على أن هذا هو أول يوم لي هنا، فأنا متأخر بسبب المطر، فللأسف لم أحمل مظلتي.

لكن دعيني أعدْ من جديد. فاسمي (محمد)، وكما تقول الورقة التي في يدي، سأدرس معكم في هذه القاعة، وأتمنى أن أكون طالبًا مجتهدًا.

ضحكت الأستاذة، وقالت وهي تتناول مني الورقة:

- بالتأكيد ستكون كذلك، تفضل واجلس.

التفتّ ناحية الطلاب، الذين كانوا يرمقونني بأعين ألمح فيها الكثير من التساؤلات، كانت هناك العديد من المقاعد الشاغرة، توجهت نحو مقعد في آخر القاعة وجلست، كان بجانبي مقعد فارغ، وفي الجهة الأخرى رجل في أواخر الأربعينيات تقريبًا، كان يشير برأسه ويبتسم مرحبًا.

- دعونا نرحب بمحمد القادم من...

هكذا بدأت الأستاذة وهي تقدمني للطلاب، ومن ثم بدأت تعرف بنفسها:

- اسمي (كرستينا)، سأكون مدرستكم في هذا المستوى.

وبدأ الطلاب يعرفون بأنفسهم، كان في القاعة فتاتان وثلاثة شبان، وكنت أسابق الزمن لأكتب أسماءهم في دفتر أحمله:

((كانا)، (بيكا)، (خوزيه)، (بيونغ سونغ)، (جي لين))

كانت المجموعة في شبه تآلف تام، ربما لطول المدة التي أمضوها معًا. كنت ألمح ابتسامات من الطلاب تجاهي، فسرتها بأنها قبولهم بي داخل مجموعتهم.

عادت الأستاذة تشرح، وأنا أحاول أن أركز فيما تقوله، وإن كان عقلي يفر بعيدًا ليحلق في سماء الخيالات، أو يغرق في تأمل الموجودين!

كنت أختلس النظر إلى من بجانبي الذي كان ينظر إلي بتأمل وكأنما يقوم بتقييمي. التفتّ ناحيته وأنا أبتسم، وأقول بصوت هامس:

- أهلا، هل يمكنني أن أشاركك الكتاب، فلم أستلم كتابي بعد؟

جي لين (يتحدث)

لم أكن أتصور أن يأتي عليّ أسبوع ممل كهذا، خصوصًا بعد الأشهر السبعة المثيرة التي أمضيتها في المعهد، فمع أن (كرستينا) أستاذة قديرة وتحمل خبرة ٢٠ سنة في هذا الحقل، إلا أنها ليست بمستوى (ديفيد)، أو (نيكولا) أو حتى التي تصغرهم سنا (ويفني).

كنت غارقًا في أفكاري عن زوجتي التي تركتها في الصين مع طفلي ذي الأعوام الخمسة عشر، إنها فقط أربعة أشهر وسأعود لكِ (سانغي) ولصغيري، وكذلك لعملي الممل كأستاذ في الجامعة.

تذكرت كيف كان وداعنا بالدموع، كنت أتمنى أن أقبل مابين عينيك، وأمسح دموعك من على وجنتيك، لكنها التقاليد... ألا سحقًا لها.

آه يا عزيزتي... لم أكن أعتقد أني أحمل كل هذه المشاعر تجاهك، خاصة بعد ١٧ سنة من الزواج، فلقد افتقدت لمستك الحانية، وابتسامتك الحزينة، بل .. لقد اشتقت لك عندما تغضبين!

انتزعني من أفكاري صوت طرقات مترددة على باب القاعة، وانفتح الباب ليدخل شاب يبدو مترددًا، في أواسط العشرين من عمره، يلبس نظارات أعطته لمسة أناقة، وإن كانت منحته منظرًا أكبر من عمره، كان يجاهد كثيرًا ليحتفظ بابتسامته الجميلة.

أجرى حوارًا قصيرًا مع (كرستينا) لم أسمع منه شيئاً، وتوجه نحوي، وجلس بجانبي، وابتسمت وأنا أهز رأسي مرحبًا به، بعدها عرّفت به الأستاذة، إذن أنت سعودي! ومسلم، جيد.. يبدو أنك ستكون مثار جدلٍ لا بأس به، وسأكون مستعداً لذلك.

انتبهت إلى التفاتة (محمد) ناحيتي، وينظر إلي بعمق كأنما يسبر أغواري، ويبتسم كأنه يعرف أني أفكر فيه، هل يقرأ أفكاري؟ واقترب ناحيتي وهو يقول بصوت هامس أثار قشعريرتي:

- أهلا، هل يمكنني أن أشاركك الكتاب، فلم أستلم كتابي بعد.

محمد (يتحدث)

حدقت في (جي لين) طويلاً منتظرًا إجابته، غير أن الرجل تاه طويلاً بين أفكاره، حتى جاءني صوته أخيرًا وهو يهز رأسه كأنما ينفض فكرة ما من المكوث بين ثنايا زوايا عقله:

- بالتأكيد، تفضل.

حاولت أن أنشئ قناة للحوار بيني وبين (جي لين)، غير أن (كرستينا) قطعت ذلك بسؤاله عن كتاب ما طلبت منه قراءته.

انتهى وقت المحاضرة الأولى كان هناك وقت راحة بين المحاضرتين، مكثت في مقعدي، وأنا أرمق الطلاب بنظرات عابرة، كانت إحدى الفتيات تنظر إلي باستمرار، وهي تتحدث مع الأخرى، وعندما تتلاقى الأعين، تشيح بوجهها وكأنها لا تلوي على شيء.

لم يكن لدي ما أفعله، لذا ـ وكالعادة ـ أخرجت هاتفي المحمول، وبدأت أعبث بأزراره، عندما لمحتها، تنهض من مقعدها، وتتجه ناحيتي!

هل هو حسن الحظ، أم بؤسه، الذي جعلها تجلس بجانب (جي لين) الذي يفصل بيني وبينها، والتفتت ناحيتي وهي تقول:

- كيف حالك؟ هل أعجبك درس اليوم؟

عندما فتحت فمي محاولاً الرد، عاجلتني قائلةً:

- أنت مسلم، أليس كذلك؟ سمعت أنكم يمكنكم الزواج من أربع نساء، هل هذا صحيح؟

لست أدري كيف كانت تعابير وجهي حينها، فهذه الفتاة اليابانية لم تشأ أن تجعل الدراسة هنا نعيمًا خالصًا، ولم تعطني الفرصة للاستقرار النفسي في المعهد، بل ومنذ اليوم الأول وفي الساعة الأولى فجرت دوامة من الأسئلة، لن ولم تنته... كان من حقي أن أحظى بمدة للتكيُّف، ومن حقها أيضًا أن أجيبها.

كانا (تتحدث)

كم أنا غبية، لماذا كلمته البارحة؟ لم يكن هناك أي داعٍ لمحادثته، ولم أكن في حاجة إلى ماله الغبي. فلدي عمل هنا أجني منه ما يكفيني، ولكنها (أمي) التي قالت لي إن والدك يريد الحديث معك ولم تعطني الفرصة للرد عندما ناولته سماعة الهاتف، وبدأ يتحدث معاتبًا كالعادة على شيء أجهله، هذا الغبي يظن أنه أسدى لي خدمة ما عندما جلبني للحياة. لذلك اتخذت قراري... لا زواج ولا أطفال!

التفتّ ناحية (بيكا) الفتاة الكورية، وصديقتي الوحيدة. التي توفي والدها وهي صغيرة، وترك لها من حسن الحظ ثروة لا بأس بها، وشباب، وجمال، ومال، تفعل بهم ما تشاء.

كانت بيكا تختلس النظر نحو الطالب الجديد (محمد)، غمزتها في يدها وأنا أقول لها بخبث:

- مالك وماله يافتاة، بالكاد وصل إلى هنا، وها أنت تخططين لسرقته؟ هل تنوين أن تعيشي في خيمة في قلب الصحراء بقية حياتك؟ أم تنوين أن تستخدمي الجمل في تنقلاتك؟!

التفتت (بيكا) ناحيتي بوجهها الذي يذكرني دومًا بدمية كانت لدي وأنا طفلة، فالعينان الصغيرتان، والوجه الصغير الدقيق الملامح، المحمر قليلاً بسبب كلامي، يعلن بوضوح عن الجمال الآسيوي.

قالت (بيكا) وهي تغمز لي:

- بل قولي ربما يضيفني إلى قائمة زوجاته، فحسب ماسمعت أنهم يتزوجون أربع نساء!

- (واااو) أربع؟... هل أنت متأكدة؟ سوف أسأله عن هذا.

أمسكت (بيكا) بيدي وهي تشدني، وتقول:

- أأنت مجنونة؟ المسكين لم يكمل بعد يومه الأول، وها أنت تحاصرينه بأسئلتك الخبيثة؟ ألا يكفي أنه جلس بجانب (جي لين)، وهما كما ترين يتحدثان الآن، يبدو أن (جي لين) لم يقاوم فبدأ يحاصره بالأسئلة.

التفتّ ناحية (محمد) الذي كان ينظر إلى (جي لين) بنظرات نافذة ويهمس في أذنه بكلمات، جعلت (جي لين) يتصلب طويلاً وينفض رأسه. أيعقل أن يكون هذا الشاب البهي الطلعة، يرهب (جي لين) العتيق. ربما هذا العجوز لن يصمد طويلاً أمام ذكاء هذا الشاب، لا تسعد كثيرًا يا (محمد)، فهناك مخالب أنثى توشك أن تغرز في عنقك، فهل أنت مستعد؟

التفت (محمد) ناحيتي وهو يرمقني بعينين تسبر أغواري، هل كنت أتكلم بصوت عالٍ؟ أشحت بوجهي سريعًا، وأنا أشغل نفسي بترتيب أوراقي، فلقد انتهت المحاضرة الأولى.

حزمت حقيبتي، وحزمت معها أمري، وتوجهت ناحية (محمد) وجلست، لست أدري لماذا جلست بجانب (جي لين)، هل هو خوفًا من هذا الشاب، أم أني أستمد القوة في الحديث من العجوز (جي لين)، التفتّ ناحية (محمد) وأنا أجهز نفسي للسؤال، ماذا أقول؟ هل أدخل في صلب الموضوع مباشرة؟ أم أقدم بمقدمات؟ لم أدرِ كيف خرجت الكلمات مني عندما قلت:

- كيف حالك؟ هل أعجبك درس اليوم؟

حاول (محمد) أن يرد، لكن نظراته التي هزتني قليلاً، جعلتني ألقي بكل ما في جعبتي من أسلحة وأقول:

- أنت مسلم، أليس كذلك؟ سمعت أنكم يمكنكم الزواج من أربع نساء، هل هذا صحيح؟

كان رد (محمد) غريبًا، فانتظرت منه أن يثور، أو أن يغضب، بل حتى أن يهددني!

لكن ردة فعلة كانت عجيبة، فشفتاه تألقتا بابتسامة واثقة، ورقت عيناه وهو ينظر إليّ بإشفاق! والمصيبة أنه يبدو سعيدًا بمثل هذا السؤال.

محمد (يتحدث)

كان سؤالها مفاجئًا... فلم أدرِ بماذا أجيبها، فهل ستفهم حكمة التعدد؟ أم هل ستقتنع بأن ليس كل المسلمين يعددون؟ بل هل ستصدقني عندما أقول إن القليل هم من يفعل ذلك؟

أنقذتني (كرستينا) من الخوض مع هذه الفتاة المشاكسة في حوار ربما لا يكون محمود العواقب، ففي تمام الحادية عشرة دخلت وهي تحمل عددًا من الأوراق، وكتابًا، وقواميس عدة. أغلقت الباب، ووضعت الكتب، وبدأت توزع الأوراق على الطلاب، واتجهت ناحيتي وناولتني كتابًا بني اللون وهي تقول مبتسمةً وهي تشير إلى (جي لين):

- هذه نسختك، لن تضطر إلى أن تتحمل مضايقات (جي لين) في الكتاب بعد الآن.

ابتسمت وأنا أرد دعابتها وقلت:

- شكرًا لك، لقد أرحتني بالفعل من تحمل هذه المضايقات.

كرستينا (تتحدث)

كم الساعة؟ مازالت (الحادية عشرة)، بقي القليل وأعود إلى صغيري (فنلي)، الذي تخطى الخامسة ببضعة أسابيع، فبالرغم من أني شددت الوصية على (جليسة الأطفال) لكي تعتني به، وتعطيه الدواء في موعده، إلا أن شباب هذه الأيام لا يعتمد عليهم في كثير من الأمور. فما بالك أن تأتمنهم على طفل مريض جداً.

دخلت إلى القاعة وأغلقت الباب خلفي، وأنا أحمل في يدي عدداً من الأوراق التي سهرت البارحة في تقويمها، والتي تسببت في حنق زوجي عليّ، لكنه عملي وأنا أحبه، وهذا يكفي.

لقد أفنيت شبابي في هذا المجال، وحصلت على العديد من الشهادات العليا في تدريس اللغة، بل إني واحدة من الأساتذة اللاتي يشار إليهن بالبنان، ويأتي المدرسون ليدرسوا لدي من كل مكان في هذه المدينة، فاشتهرت كـ (مدرّسة المدرّسين!)، فلقد أفنيت مالي وشبابي لأجل هذا.

وزعتُ الأوراق واتجهتُ نحو (محمد) الطالب الجديد، الذي يروق لي نوعًا ما، فلديه حس فكاهي جميل، مددت له بالكتاب محاولة أن أتودد إليه، فقلت على سبيل الدعابة وأنا أشير إلى (جي لين):

- هذه نسختك، لن تضطر إلى تحمل مضايقات (جي لين) في الكتاب بعد الآن.

أعجبتني سرعة بديهته،عندما عاجلني قائلاً:

- شكرًا لك، لقد أرحتني بالفعل من تحمل هذه المضايقات.

محمد (يتحدث)

بعد انتهاء الدرس، التفت (جي لين) نحوي، وهو ينظر إليّ كما ينظر الأسد إلى فريسته التي سيجهز عليها، وهو يقول:

- لم تجب على تساؤل (كانا)، حول مسألة الزواج من أربع؟ كيف يكون ذلك؟ أليس في هذا ظلم للمرأة؟

ابتسمت من سخرية الموقف، ومن حرص هذا العجوز على إثارة المواضيع الشائكة، والتفتّ ناحيته وأنا أقول:

- الزواج من أربع هو مسألة ثابتة في ديننا، وبغض النظر عن العلة أو الأسباب، فأنا كمسلم مطلوب مني أن ألتزم بأوامر الله، سواء أوافقت هواي أم لم توافقه، لكن دعني أسألك إذا تسمح لي؟

- تفضل.

- إن من أساسيات الحوار حول موضوع معين، أن يتكون لديك على الأقل معرفة بالموضوع الذي تتحدث عنه، أليس كذلك؟

- بالطبع، هذا أمر بدهي.

- ممتاز، إذا كان هذا أمرًا بدهياً، فاسمح لي أن أسألك، هل تعرف ما أساسيات الإسلام؟

وقبل أن تغرقني بأسئلتك التي تتراقص بين شفتيك، أليس من الأولى أن تتعلم الأسس التي يقوم عليها ديني؟ فليس من المعقول أن

تتعب نفسك في شرح معادلة رياضية معقدة لطالب لم يتقن عمليات الجمع والطرح بعد، ألست معي في ذلك؟

انتظرت أن يجيب (جي لين) أو حتى (كانا) ولكن يبدو أن المفاجأة ألجمتهما، ثم قال (جي لين) بعد أن استوعب الفخ الذي قدمته لهما، فلم يكن مستعداً لخسران العراك مع فريسته:

- معك حق، سوف أقرأ حول هذا الدين، ولكنه لن يفيدني بأي شيء؛ لأني غير مؤمن بأن هناك (إلها) خالقًا للكون، فأنا أميل إلى نظرية أن كل شيء تكوّن بالصدفة!

صدمني هذا القول، وهز أركاني، فعندما تنشأ في مجتمع يؤمن بالله بشكل كامل، وتأكل وتشرب وأنت تؤمن إيمانًا جازمًا بألوهية الله عز وجل، ومن ثم تفاجأ بنكران وجحود كهذا، ستكون صدمتك عنيفة بلا شك.

حاولت أن أستوعب الكلام الذي قاله، وقلت له:

- تقصد أنك من المؤيدين لنظرية (دارون)؟

- نعم، فأنا مؤمن بأن الحياة والكون.. بل ونحن.. ندور في دائرة لا بداية لها ولا نهاية، فغداً نموت ونفنى ومن ثم يفنى كل شيء، وتواصل الحياة دورتها من جديد... إلى الأبد.

- لو سلمت بما تقول ـ مع أني لست كذلك ـ وبالرغم من أن نظرية

دارون تم إثبات عدم صحتها علميًا، لكن سأفترض غير ذلك، فأنت تقول: إن الدائرة لا تبدأ ولا تنتهي، بل تدور إلى الأبد! لكن دعنا نحاول تطبيق ما تقول عمليًا، فلو أمسكت قلمًا وأردت أن ترسم دائرة ستجد أنك تبدأ من نقطة وتنتهي عندها، فهناك نقطة بداية. أليس كذلك؟

- لا...، إنها دائرة، لا بداية ولا نهاية! ألا تفهم؟

- إنني أحاول.. صدقني، لكن كلامك غير منطقي بالمرة، فلكل مرة هناك أول مرة، ولكل دائرة هناك نقطة بداية، بل وهناك موجد أو صانع لهذه الدائرة!

كنت ألمح كثيرًا من الطلاب يتابعون حديثنا بشغف، بل إن رأيت علامات اقتناع في العيون، ورأيت (جي لين) يهز رأسه العنيد بغير اقتناع، فقررت أن أنزل بكل ثقلي وأضرب بأقوى الأسلحة، خصوصًا أن الوقت بدأ ينفد والمدرّسة غادرت القاعة منذ مدة.

فقلت:

- (جي لين)، يبدو أننا لن نصل إلى حل وسط، لكن سأوجه لك سؤالا وحيدا، ولا أريدك أن تجاوبني الآن، أريدك أن تفكر فيه، وتدرس كل الاحتمالات، أنا لا أسعى للتأثير عليك، ولا تحديد مصيرك، أنت من يحدد من أنت، اتفقنا؟

هز (العجوز) رأسه، وهو يرمقني بنظرة يقول فيها: (أطفال آخر زمن، تحاول أن تزعزع الأرض التي أقف عليها، حركة مكشوفة) وقال:

- لابأس... دعنا نرَ ما لديك.

وزعت نظراتي على الجميع، محاولاً أن أضم الكل إلى نقاشنا، وقلت:

- سوف أدرس معك هنا لمدة ١٢ أسبوعًا، وسنلتقي يوميًا في نفس القاعة، أريدك أن تجيبني يوميًا على هذا التساؤل: لماذا نحن هنا؟ لماذا البشر موجودون؟ لماذا أجدادنا كانوا هنا؟ لماذا أولادنا سيولدون؟ ما الغرض من حياتنا؟ ما الهدف منها؟

حاول (جي لين) أن يرد، غير أني لم أمهله كثيرًا، فنهضت من مكاني وأنا أحمل كتابي وأضعه في حقيبتي، وأقول له:

- تذكر... أنا لا أريد الإجابة الآن، فقط فكر في جميع الاحتمالات، وجميع السيناريوهات الممكنة، فوجودنا له هدف أسمى من أن نتكاثر أو نخترع شيئًا ثم نفنى، ومن ثم نعود ونتكاثر من جديد ونعيد نخترع ما اخترعناه، لأجل عيون دائرتك!

بعد أن غادرت القاعة، لم أستطع أن أتحمل الجو الخانق داخل المعهد.

لذا آثرت الخروج إلى الشارع.

كان هناك رذاذ خفيف يتناثر من السماء.

أخذت أمشي تحت الرذاذ وهو يحط على كل شيء.

وأنا أستنشق بعمق الهواء المنعش المشبع برائحة المطر.

وأتأمل بشغف المناظر الخلابة، للطيور والأشجار.

وأصغي إلى صوت الطبيعة الرائعة.

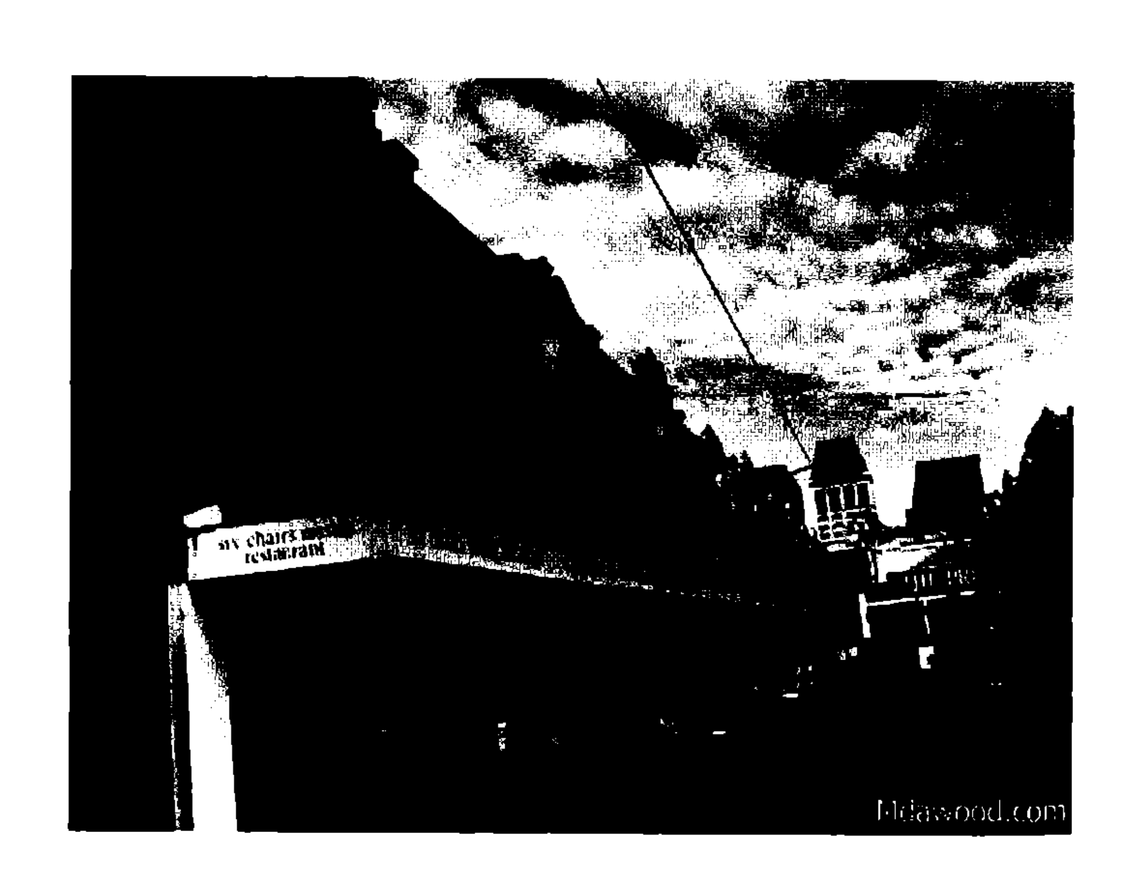
أكل هذا جزء من الدائرة التي يقول؟

أم هل يعقل أن يكون هذا الجمال صنيع الصدفة؟

أيعقل؟



سخريةٌ... وانتقام



مقولة نيوزيلندية

He nui tangata e heke ana ki te Pō, he iti tangata e kake ana ki te Rangi

هناك الكثير من الفشل، والقليل من النجاح

توماس (يتحدث)

كلمات... كلمات

كل ما كتبته مجرد كلمات!

كنت انتزعتها من أعماقي...

بل وأنتقيها بحرص من قاموس مفرداتي...

فلم أكن أريدها أن تفهم أني مشتاق لها، ربما أفتقدها، لكني لست متحرقًا للقياها، فيكفي أني ضيعت معها ثماني عشرة سنة من عمري، تحكمت وتدخلت فيها كيفما تشاء.

معذرة يا أمي... لن أدعكِ تسيطرين عليّ بعد الآن، فبالرغم من أني ابنك الوحيد، إلا أني احتفلت بميلادي العشرين قبل أسابيع عدة.

فلم أعد ملكًا لكِ بعد الآن.

كانت أصابعي تهرول على لوحة المفاتيح، والأزرار تئن من وطأتِها، وأنا أضع اللمسات النهائية على البريد الذي سوف أرسله لأمي، محاولاً أن أنتقي العبارات بحرص، فلا أريد انطباعًا يوحي بأني متعلقٌ بها، فقط أنا بخير، وكل شيء على ما يرام... ولا تتصلي بي مرة أخرى!

أعدت قراءة النص للمرة الأخيرة، وأمسكت الفأرة وهرولت بالمشيرة إلى زر الإرسال وألقيت النظرة الأخيرة على الرسالة،... كل شيء في محله، وضغطت على (إرسال).

نظرت إلى ساعتي، كانت المحاضرة الثانية على وشك البداية، أغلقت بريدي، ونهضت من مقعدي وأنا ألقي نظرة متفحصة على الطلاب الذين معي في معمل الحاسب الآلي في المعهد، حملت حقيبتي، وأنا أحاول أن أسيطر على خطواتي، فمازلت أعاني أثر سهري ليلة البارحة، والصداع لا يزال متربعًا على رأسي.

عندما دخلت القاعة، كان (ديفيد) المدرس القدير قد دخل للتوّ، توجهت نحو مقعدي المعتاد، وأنا ألقي التحية على الطلاب، كان هناك طالبٌ جديد يجلس بجانبي.

حاولت أن أركز فيما يقوله (ديفيد)، غير أن الصداع كان يعاود نشاطه مرة أخرى، طأطأت رأسي في ألم، واضعًا يديّ على رأسي، محاولاً أن أوقف الألم المتدفق في خلاياه.

- (توماس)... أأنت بخير؟

رفعت رأسي نحو صاحب الصوت، كان (ديفيد) يسألني في قلق، فقلت:

- مجرد صداع، سيزول قريبًا... شكرًا لاهتمامك.

سمعت ضحكات بعض الطلاب، عندما قال البرازيلي (ماركوس):

- لقد أكثرت يا صاح من الشرب ليلة البارحة، لدرجة أنني اضطررت إلى أن أحملك بين ذراعي لأدخلك في سيارة الأجرة، التي أوصلتك إلى منزلك، بالطبع أنت لا تذكر شيئاً من هذا، فلقد كنت في عالم آخر.

بالفعل... فآخر شيء كنت أذكره هو دخولنا (للبار الأيرلندي)، وطلبي لمشروبي المفضل (فودكا بالبرتقال)، أم كان (المارتيني)..!!

وكالعادة... لقد أفرطت في الشرب، ثم غبت عن الواقع، فلم أعد أدري ما فعلت.

أخرجت علبة (الأسبرين) وابتلعت حبتين دفعة واحدة، أريد أن أتخلص من هذا الصداع اللعين، وقلت:

- سأكون على ما يرام... فقط دعوني وشأني.

كان الطالب الجديد، الذي كان عرف به (ديفيد) باسم (محمد) من منطقة من الشرق الأوسط، يسترق النظر إليّ، وعيناه تحمل نظرات اشمئزاز، كأنما ينظر إلى حشرة مقززة، لم ترق لي نظراته، لذا حاولت أن أتجاهله، وعندما التفتّ مرة أخرى وجدت هذا (الوقح) مستمرًا في اختلاس النظر ناحيتي وبنظرات تحمل كل احتقار الكون، ويبتسم في سخرية.

لم أتمالك أعصابي حينها، والتفتّ وقلت له بصوت عال:

- إلام تنظر أيها المأفون، ألم تشاهد شخصًا يعاني آثار الشرب من قبل؟ أم أنتم أيها العرب المتخلفون القادمون من أعماق الصحراء لا تعرفون معنى لذلك؟

يبدو أني استخففت بذكاء هذا الشاب، فسرعان ما انقلب تعبير وجهه إلى البراءة المطلقة، والتفتَ نحو (ديفيد) وهو ينظرُ إليه في تساؤل بريء، وعيناه تقولان (ما هذه المهزلة؟) التقط (ديفيد) الإشارة منه، والتفت ناحيتي وهو يقول محاولاً أن يبتسم:

- (توماس) يبدو أنك متعب قليلاً... أرى أن تذهب إلى منزلك وترتاح.

كنت أعاني صعوبة في الاستيعاب،

ماذا... هل (ديفيد) يطردني من القاعة بسبب هذا الشخص المتخلف؟ وقلت:

- ماذا.. هل تطردني؟ لم أفعل شيئاً... فقد كان هذا الدموي السافل يسخر مني.

- (توماس)... انتبه لكلماتك، فجميعنا يعلم أن (محمد) لم يقل لك شيئًا... لابد أنك تتوهم. أنصحك وبشدة أن تذهب الآن إلى منزلك، ورجاءً عندما تعاني نفس الحالة، حاول أن ترتاح في منزلك.. فهذا أفضل لنا ولك.

ابتلعت الهزيمة، وحملت كتبي ورميت بها في حقيبتي كيفما اتفق، وقمت من مقعدي، وأنا أرمق الجالسين بنظرات مريرة.

لحظة... هل تخدعني عيناي.. أم هذه فعلاً نظرات سخرية تتجلى بوضوح في عيني الطالب الجديد. حسنًا أيها المتحذلق سيكون بيني وبينك كلام آخر.

- (توماس)...

التفتّ ناحية (ديفيد) الذي أشار بعينيه، نحو الطالب الجديد... ماذا يريد؟ هل يريدني أن أعتذر! (ديفيد) لقد تماديت فعلاً، لن أعتذر لهذا الشخص، التفتّ ألتمس العون من أصحابي، غير أن الوجوم كان يسود الموقف، كان كل أصحابي تألبوا عليّ، وكلهم يتنظرون اعتذاري له.

- حسنًا... أعتذر يا.. ما اسمك... (محمد!)، مهما يكن.. أنا آسف.

قلتها بسرعة، ولم أكن أعني ما أقول، فهذا لا يستحق إلا لكمة في أنفه، أشوه فيها وجهه الباسم.

خرج (ديفيد) معي وبدأ ينصحني بشأن (الشراب) والتحكم بردود فعلي، وأنه يجب ألا أحضر للمعهد عندما أكون في حالٍ كهذه.

نظرت في عينيه وأقول في نفسي: (ماذا الآن... أتريد أن تكون مثل أمي؟؟.. لقد ارتحت منها ومن سيطرتها عليّ، لقد أخرجتها من حياتي، ولست مستعدًا لأسمع منك شيئًا بعد الآن أيها القزم الحقير، فيكفي أنك طردتني من الدرس، وجعلتني أبدو أضحوكة أمام ذاك العربي المتخلف، وفر نصائحك لمن يحتاج إليها).

خرجت من المعهد، وأنا أجر أذيال الخيبة والهزيمة، فمن نظرة واحدة من ذاك الطالب، خرجت عن طوري، واشتد بي الغضب، وتهجمت عليه وعلى مدرسي الرائع، والمحصلة النهائية أنني اعتذرت له، وطُردت من القاعة، ووجِّه لي اللوم من الطلاب والمدرس.

ما أشد رغبتي في الانتقام الآن... لكن قبل ذلك، فأنا بحاجة إلى (كأس) أروي بها ظمأي، وأزيل بها هذا الصداع اللعين.

لم أدرِ كم مضى عليّ وأنا أشرب العديد من الكؤوس إلى أن أحسست بأنه لم يعد برأسي مكان شاغر للتأجير!

عندما وصلت المنزل كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً، عندما بدأ الصداع يغزو خلاياي مرة أخرى، ابتلعت عدة أقراص من المسكن الذي لا يغادر حقيبتي، ودخلت فراشي... وغبت عن الوعي.

أفقت في صباح اليوم التالي، كان الصداع قد خف كثيرًا، لم أكن أتذكر الكثير مما جرى بالأمس،

غير أن هناك رغبة ملحة في الانتقام...

وشخص يدعى (محمد)!!

محمد (يتحدث)

استيقظت على صوت رنين هاتفي المحمول، الذي أشارت ساعته إلى الخامسة صباحًا، بصعوبة قرأت الاسم المتراقص على الشاشة، (ياالله صباح خير!!) كان المتصل أخي، هل صدّق ما ذكرته له عن مسألة الزواج؟!

ضغطت على زر الإجابة وقلت وأنا أغالب صوتي لكي يظهر واضحًا:

- (أيوه..)

- (هلا حمادة!.. ما شاء الله عليك.. نايم؟)

- (نايم!! هل تعرف كم الساعة الحين؟ أقول... احمد ربك أني منيب حولك، ولا كان ابتوطى في بطنك)... إنها الخامسة الآن، بقي ساعة كاملة إلى الفجر.

- (خل عنك الكسل، وصحصح...) كل العائلة مجتمعين الآن، نبي نشوفك على (الماسنجر)... بانتظارك.

نفضت غبار النوم عني، ونهضت من فراشي مزيلاً أكوام البطانيات، فأنا بحاجة ماسة إلى جرعة عائلية، خصوصًا بعد ما حصل البارحة مع (توماس)، وإن كنت في قرارة نفسي أشعر بأن اليوم سيحمل لي المزيد.

سحبت سلك الهاتف وأوصلته بجهازي المحمول، وأنا أدعو الله بأن لا يسمعني (أدموند) فموقفي سيكون صعب الشرح، فمن ذا الذي يجري اتصالاً قبيل الفجر!

كان الحديث ممتعاً، واستمر لقرابة الساعة، تحدثنا في كل شيء، تافهًا كان أم غير ذلك، تحدثت مع الأطفال، مع الكبار، تبادلنا النكات والتعليقات اللاذعة...

بالرغم من كل فوارق للزمان والمكان إلا أنني شعرت بأنني بينهم، ألا ما أروع التقنية! فعندما أغلقت الاتصال هنا لأستعد لأداء صلاة الفجر، كان أخي هناك يستعد لأداء صلاة العشاء، وبالرغم من أن المدفأة كانت تجاهد لتبعث الدفء في غرفتي التي قاربت درجة الحرارة فيها الـ (٥) درجات، كان المكيف في غرفته يعمل بطاقته القصوى ليهزم الـ (٤٠) درجة!

لم أكن مستعدًا لخسران هذه المعنويات المرتفعة، لذا غادرت المنزل مسرعًا متحاشيًا لقاء (أدموند)، وانطلقت إلى المعهد.

في تمام الثامنة كنت أخطو داخل المعهد، عندما وقعت عيناي عليه، شاب طويل، مفتول العضلات، أشقر الشعر،عينان زرقاوان، ببساطة النموذج الغربي للشاب الوسيم! كان ينظر إلي بحقد وكره، كأنما قتلت والدته -هذا لو كان يعرف من هي- اقتربت منه وأنا أبتسم وقلت:

- صباح الخير (توماس)... كيف كانت ليلتك؟

لم يرد علي، وإن كان يتمتم بكلمات لم أسمعها، فهمت منها (اغرب عن وجهي.. أيها الـ..!)، ابتسمت في جذل، كان حب الإثارة يفـور بداخلي فلم أقـاومـه...، وبدون أن أنتظر منه ردًا قلت وأنا أحاذيه وابتسامتي تزداد اتساعًا:

- أتمنى أن يكون صـداعك قـد زال تمامًـا،... بالمناسـبـة حـديثنا البارحة كان ممتعاً... أتمنى أن تجد الوقت لكي نتحدث أكثر.

احمـر وجهه، وبدأت أسمع الضحكات تتناثر من بعض الفتيات اللاتي كنّ معه، وتناهى إلي صوته بعد أن ابتعدت وحروف متقطعة (.. فـ ..) (.. يو)...!

انتهى الدرس الأول، كان ممتعاً، ولا يعيبه سوى عدم حضور (جي لين)، خـرجت إلى الشـارع أتحـدث مع (عـذيب)، وأسـتـمـتع بالشمس المشرقة، عندما شاهدت (طلال) يعبـر الشارع مع شاب آخر، تقدم نحوي وهو يقول:

- (وش صـاير بينك وبين (تومـاس!)؟ اسـمك ضـارب فـي الآفـاق.. ترى توك واصل، لا تثير حولك المشاكل!!)

- (مـشـاكل!!)... (مـاقلت له شـيء... بس هو انفـجـر من نفسـه!!) يبدو أن لديه مشكلة ما، وجدت طريقها للخروج من طريقي.

- (انتبه منه، تراه بطل كمال أجسام.. و(سكّير) درجة أولى، وراعي مشاكل! وعلى العموم لايهمك هالخنزير، لو بغيت فزعة، بس دق عليّ.. وأبجيب لك الشلة، ماحد يحبه هال (كلب!).)

لم أتمالك نفسي من الضحك، وقلت:

- (طلال.. وش السالفة (كلب وخنزير)!، وقبل كم يوم تقول لي أترك الطوع!)

- (أبد.. بس هالحيوان! دايم يستهزئ بالمسلمين، ولما الشباب يصلون في المعهد يجي يستهبل عليهم!)

لحظة... لابد أنني أحلم، هل (طلال) هذا الذي يتحدث في حماسة دفاعًا عن الدين، هو نفسه الذي يقضي ليله متنقلاً بين الحانات، كنت أسمع عن هذا النوع من شبابنا... من يقترف أنواع الموبقات، ولكن عندما تنتهك حرمة الدين تتحرك لديهم الحمية، فيقلبون عاليها سافلها... وفيما يبدو هذا ما ينوي (طلال) فعله.

كان الدرس الثاني على وشك أن يبدأ، فقلت لطلال:

- (نشوفك بعد الدرس.)

- (عندي لك مفاجأة...)

(شكل اليوم ما راح يعدي على خير)...

دخلت إلى القاعة، وجلست في مقعدي، وكان (توماس) بجانبي ينظر إليّ بحنق، وكنت أجاهد لأحافظ على ابتسامتي، وبعد انتهاء الدرس، أشار لي (ديفيد) بأن أتبعه، وقال لي:

- إن حاول هذا الأحمق إيذاءك، فلا تتردد في الاتصال بي أو بأحد مسؤولي المعهد، وسنتولى معاملة هذا السافل بما يستحق.

كنت متعجبًا من مستوى اللهجة التي يستخدمها هذا المدرس المهذب، فقلت له:

- ما الذي يجري هنا؟ ولماذا أنت غاضب عليه لهذا الحد؟

تنهد (ديفيد) وهو يقول لي:

- إنها قصة طويلة، ولكن هذا الطالب تعدى على العديد من المدرسين، والطلاب، وننتظر منه فقط أي تعدٍ آخر لكي يطرد من المعهد، ويبدو أنك أنت ضحيته التالية.

ابتسمت لاستخدام (ديفيد) هذا المصطلح (ضحية)... (ربنا يستر)!

ولم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل عن أقرب رحلة إلى الرياض...!

صعدت إلى الطابق الأعلى، حيث نجتمع لنؤدي صلاة العصر، ووجدت طلالاً، (يبدو أن هناك حدثا غير عادي اليوم، فطلال

حضر للصلاة معنا..) كنا نجلس في انتظار (عذيب) الذي حضر مع طالب من تركيا يحضر يومًا ويغيب آخر.

كان الطابق شبه فارغ، فلا يوجد سوى عاملة النظافة، تضع اللمسات النهائية لعملها، وتعيد الأدوات إلى مكانها، دخلنا إحدى الغرف الفارغة، واصطففنا للصلاة.

في الركعة الأخيرة، سمعنا صوت طرق عنيف على أحد الأبواب، وبعد أن أنهينا الصلاة عاد الضرب على باب القاعة.

انفتح الباب بقوة ودخل معه شاب ثائر يحمل في يده عصا غليظة، دخل خلفه ثلاثة شباب كانوا برفقة (طلال) عندما رأيته أول مرة.

لم يكن الشاب سوى (توماس)، متجهًا نحوي، وهو يهز عصاه الغليظة في وجهي ويقول:

- ماذا ستفعل الآن أيها الـ....، ربما هذه ستعلمك كيف تحسن التعامل معي.

أشار (طلال) لأحد الطلاب البرازيليين، والتفتَ ناحية (توماس) وقال مبتسمًا:

- (توماس)... يالها من زيارة سعيدة تُشرف بها مصلانا المتواضع، رجاءً ضع ألعاب الأطفال التي تحملها بيدك، وأنصحك أن تعيد تقييم موقفك، ولنبدأ من جديد، ما رأيك؟

عندما التفت (توماس) كان باب القاعة مغلقا، وخمسة شبان في فتوة شبابهم، متحلقين حوله، وكلهم ينظر إليه بكره، وهو يتذكر كيف عاملهم في الماضي، فقلت له:

- ربما تكون قوي البنية بالفعل، ولكن مفعول جريان هذا السم في عروقك يفقدك قوتك، وبالرغم من ذلك فنحن نقول في بلدي (الكثرة تغلب الشجاعة) هذا لو كنت (شجاعًا.. !)، أمازلت تريد أن تخوض في هذه المسألة على طريقتك؟

أدرك (توماس) أنه يخوض معركة خاسرة، فترك عصاه تسقط على الأرض، وعاد أدراجه ليخرج من الباب، غير أن ثلاثة من (البرازيليين) كان (ماركوس) أحدهم، أغلقوا عليه الطريق، و(طلال) يقول له:

- (توماس)... (رايح فين ياروح أمك! هو دخول الحمام زي خروجه...)، لقد كنت أنتظر هذه اللحظة منذ أول يوم عرفتك فيه.

كان (طلال) متحمسًا، ينظر فقط متى نبدأ القتال! (يبدو أنه مدمن لمشاهدة أفلام الأكشن !)، وبالفعل كنت أشعر وكأني أحد أبطال أفلام المافيا، والجميع ينتظر إشارتي لكي يجهزوا على هذا الفتى الخائف! الذي أخذ ينقل عينيه المتوسلتين بيني وبين طلال، مدركًا أنه وقع في الفخ الذي نصبه له (طلال)، وهو يسترجع

الصورة المشوهة عن العرب في ذهنه وكيفية تعاملهم... (قتل، تفجير، تدمير... ربما جزٌّ للرؤوس)!

كنا نجلس متحلقين حول الطاولة، و(توماس) يقف في المنتصف، و(الشبان الثلاثة الفزعة) الذين أحضرهم (طلال)، يقفون يسدون الباب.

لم أكن أعرف أن لطلال لمسة (سادية) كان يتلذذ بممارستها مع هذا الشاب، فبدأ يدور حول القاعة وهو يقول:

- إذًا... ها نحن أخيرًا يا (توماس) لقد كنت أنتظر هذا اليوم منذ مدة، أتعرف لماذا؟

دعني أنعش لك ذاكرتك...

أتذكر عندما كنت تسخر منّا... ومن طريقتنا في الصلاة؟!

وهل تذكر عندما قلت لـ (صالح) بأنه مريض عندما ترك الاختبار لأداء صلاة الجمعة؟!

بل هل تذكر سخريتك بحجاب تلك الطالبة المسلمة، ماذا سميته... نعم لقد قلت (عرف ديك!).

والشاب المسلم الصومالي في الشارع سخرت من طريقة لبسه!

وسائق التاكسي النيوزلندي المسلم عندما سخرت من لحيته!

كل هذا وأنت تقول (حرية تعبير)...

لا بأس أنا هنا أيضًا أمارس (حرية التعبير..) ولكن بطريقة عملية أكثر.

بينما (طلال) يعدد، كل ما فعله (توماس)، كنت أرقب وجهه الذي بدأ يتصبب عرقًا، وهو يسمع قائمة طلال التي تزداد...

استمر طلال يتكلم وهو يتحدث بصوت مخيف:

- ماذا أفعل بك؟ بصراحة لا أدري.. فهذا سؤال صعبٌ جدًا، فهناك العديد من الخيارات، لكن ما خياراتك أنت؟

هل (تصرخ!)..؟ حلٌّ لا بأس به، ولكن نحن في الدور السادس، وكل الطلاب مع الطاقم الإداري قد غادروا المبنى، وقليل منهم في الدور الأرضي.

إذًا(تهرب!) للأسف خيار غير سليم فكما ترى يا عزيزي الوغد لقد أغلقنا الباب.

بقي لك أن (تضربنا!) وهو خيار غبي وإن كنت أفضله، لكي تعطيني المبرر الأمثل لكسر أسنانك، ونتف حواجبك، وتقطيع شفتيك، فحينها سأكون في حالة دفاع عن النفس.

لم أتمالك نفسي مع هذه السادية والوحشية التي كان يتكلم بها طلال، فقلت له (بالعربية):

- طلال... (هدي اللعب شوي)، (المسكين ضاعت علومه).

رد علي بالإنجليزية، وعيناه تتألقان في جنون:

- (محمد)، نعم سوف أفعل أكثر من هذا، سيكون هذا المأفون خبرًا رئيسـاً على شاشة التلفاز لهذه الليلة، ولن تتعرف أمه على صورته التي سينشرونها، سأقلع عينيه من محجريهما، وبما أني كنت أتمنى أن أدخل كلية الطب، لذا سأتسلى بممارسة التشريح عمليًا على وجهه!

كنت أنقل بصري غير مصدق بين (طلال) الذي أخرج من حقيبته سكينًا سويسرية، وبين (توماس) الذي خارت به قدماه، وسقط أرضًا، وتقدم شابان وأمسكوا بيدي (توماس) ولوياهما من الخلف، كان الخوف أخذ منه كل مأخذ، وهما يحركانه كالعجينة، وطلال يتقدم نحوه ويقول:

- قل لي... من أين أبدأ؟ هل تكون مقبلاتي بخلع أحد أسنانك، أم لعل انتزاع أحد أظفارك قد يفي بالمطلوب؟.. لا.. لا.. ليست بي شهية لهذا.. أريد منظرًا أكثر دمويةً، أريد أن يلطخ دمك الأرضية.

لم أتحمل ما يجري، فتهيأت لأن أُبعد (طلال) عنه، غير أن طلال لمحني فقام بالتفاتة تمثيلية وغمز لي وعاد ليواجه (توماس) الذي بدأ يصرخ ويبكي ويقول:

- أرجوك.. لا.. لا، سأفعل كل ما تريد، لن أستهزئ أبدًا... لكن لا تفعل بي شيئاً.. أرجوك.

كان (نحيبه)، يخترق الآذان، ودموعه تغطي وجهه المحمر، وكلمة (أرجوك) تتردد بين نشيجه، بينما اقترب طلال منه وبدأ يمرر نصل السكين على وجهه وهو يقول:

- توماس... يالها من بشرة رائعة، للأسف لن تظل كذلك طويلاً.

رفع (طلال) يده، وبدأ يطوح بالسكين يمنة ويسرة، وهو يستعد لأن ينزل بها على وجه (توماس) الذي أوشك أن يسقط مغمى عليه من الرعب، وانفجر باكيًا، واشتد وعلا نحيبه، وطلال يصرخ فيه بقوة:

- انظر لنفسك أيها القذر، لقد بللت نفسك!

كانت هناك بقعة رطبة تتمدد بسرعة بين قدمي (توماس) ورائحة نفاذة تنتشر في الجو. وطلال مستمر في صراخه:

- اسمعني أيها الوغد... أقسم بربي (الذي طالما سخرت منه)، إن سمعتك تستهزئ بأي معتقد، أو أي طالب في المعهد، أو أي شيء، حتى المدرسين، بل حتى الحيوانات... سننتقم منك شر انتقام، وثق تمام الثقة، أنك لن تستطيع أن تهرب منّا، فكل عين في هذا البلد هي عين لنا، وكل أذن تجعلنا نسمع ما تقول، وإن عدت، عدنا... وبعنف أكبر.. هل تفهمني؟

لم يصدق (توماس) ما يسمعه... هل قد صدر الحكم بالعفو عنه؟ وهل هو حر للذهاب سليمًا... ومع أنه لم يتم مسه جسديًا، إلا أن خسارته المعنوية كانت فادحة.

عاد طلال... للصراخ وهو يقول:

- اغرب عن وجهي، وإلا غيرت رأيي... هيا اخرج.

لملم (توماس) نفسه... وأخذ يجري نحو باب الخروج، ويلتفت خائفًا، عندما اصطدم بالباب المغلق، وفتحه بتوتر شديد، وخرج وهو يحاول أن يمسح دمعه بقميصة المبتل، ويداري البلل المنتشر في بنطاله بيديه.

وعندما ابتلع المصعد (توماس)، انفجر طلال ومن معه يضحكون بشدة، و(ماركوس) يقول بانفعال:

- اللعنة يا (جاك)[1].. لم أكن أعرف أنك تجيد التمثيل لهذه الدرجة، لقد صدقتك أكثر من مرة، والمسكين بلل نفسه من الخوف، لقد استحققت جائزة الأوسكار بهذا الدور، ستكون ممثلاً قديرًا تنافس (ال بتشينو) في دوره في فيلم (العراب).

التفت نحوي طلال، وهو يجفف عينيه من دموع الضحك، وهو يقول:

- لقد تلقى هذا البائس درسًا لن ينساه طول حياته، وخصوصًا عندما نسرب الخبر، من دون أسماء طبعًا، لقد تمادى وطغى، واتفقنا على أن يتم تأديبه، وجعله عبرة للجميع، فلابد أن نحترم حرية الرأي في حدود الأدب، ولن نجعل لجاهل مثله الفرصة للتفرقة بين الناس.

(١) جاك اسم طلال الآخر، للاستزادة راجع الفصل الخامس.

كان (طلال) يمارس دورًا دكتاتوريًا ليحافظ على احترام الناس بعضهم لبعض! (وجهة نظر كلفت أحدهم الكثير).

خرجت من المعهد، وودعت (طلال) الذي أصر على أن يمشي معي إلى محطة الحافلات، وعندما وصلنا قال:

- هل أنت متأكد من أنك لا تريد أن تسهر معنا؟

لم أتمالك نفسي من الضحك، فقلت:

- طلال.. صدقني لم أفهمك بعد، كيف تستطيع أن تفعل ذلك؟ تنتقم من شخص تكلم في الذات الإلهية، ومن ثم تمضي وقتك تعصي هذا الإله؟

- لست أدري.. لكن ربما لو سألت أحد (العيال) لقال:(ساعة لربك وساعة لقلبك)، ولو سألت أحد الأطباء النفسيين لقال: (انفصام شخصية!). المهم أن هذا الوغد نال ما يستحق، وأصبح الآن نكرة لن يعترف بها أحد، وسيعود إلى بلده ذليلاً..

أقبلت حافلتي، وقلت له وأنا أستعد للصعود:

- من أي دولة جاء (توماس)؟

- إنه من دولة صغيرة،

في شمال أوروبا،

ربما لم تسمع بها من قبل،

تدعى (الدنمارك)!

٩

مانشستر ستريت



مقولة نيوزيلندية

He iti wai kōwhao waka e tahuri te waka

العاصفة يتبعها خير كثير

رفعت يدي بالمفتاح إلى قفل الباب متسائلاً، ما سر كل هذه الأنوار المضاءة؟ والسيارات المركونة أمام المنزل؟ (فأدموند) عادةً رجل شديد البخل، وعندما يجتمع البخل مع ثقل الظل ويزيد على ذلك الغباء و(الدلاخة)، فسنكون أمام حالة فريدة تدعى (أدموند).

دفعت الباب إلى الداخل، وتناهى إلى سمعي صوت ضحكات وأحاديث تصدر من المطبخ المطل على صالة الجلوس، تقدمت إلى الأمام وأنا أشرئب بنظري إلى الداخل لأعرف ماهية الزوار الذين يستضيفهم سيد البخلاء، وعندما التقت عيناي بعيني (أدموند) صاح قائلاً:

- (أووه)... ها قد وصل (محمد)، لقد قلت لكم: إنه سيأتي في الخامسة مساءً.

تقدم (أدموند) نحوي وجرني من يدي إلى الداخل، حيث كان يجلس هناك مجموعة من (العجائز)...

هل أخطأت طريقي ودخلت دارًا للعجزة؟!

كانت الأسماء كثيرة ومعقدة، ولم أستطع أن أحفظ أي واحد منها، الكل يتحدث بصوت مرتفع، فيبدو أن خلل السمع لم يكن (أدموند) الوحيد الذي يعانيه، التفتّ نحو (أدموند) وقلت:

- ما الذي يجري؟ أهذه حفلة تمنع دخول من هم أصغر من (٧٠) سنة؟

انفجر (أدموند) ضاحكًا، وأعاد ما قلته للمجموعة، فاهتزت أجسادهم قهقهة وضحكًا، كانوا خمسة أشخاص، تحلق ثلاثة منهم حول مائدة يلعبون لعبة ورقية ما، كدت أقترب منهم وأقول: (تبون رابع؟) وانهمك الرابع في صراع مع (غليونه) يريد أن يشعله، بينما أمسك الخامس بجهاز تحكم، يتقلب بين قنوات التلفاز من دون أن ينظر إلى ما يعرض عليها، وهم يتناقشون حول أحدث وسائل الزراعة!

أشار لي أحدهم وهو يقول:

- أتريد أن تلعب معنا (البريدج[١]).

- ماذا؟ وما (البريدج) هذه؟

- اسأل (أدموند)، فلقد أمضى خمس سنوات ليتعلمها، ولم يتقنها قط.

انفجر الجميع، بمن فيهم (أدموند) ضحكًا، والتعليقات تنهمر عليه وعلى قابليته للتعلم، لم أكن في حاجة إلى مثل هذه التعليقات، فكما يقال: (الكتاب واضح من عنوانه)، فهو لا يتقن شيئًا أبداً.

---

(١) البريدج: لعبة ورقية تعتمد على الذكاء والتخطيط.

التفتّ ناحيته وسألته:

- ماسبب هذه المناسبة؟

- ألا تعرف؟ لقد ظننتك مثقفًا، بما أنك تقرأ كثيرًا، فاليوم هناك مباراة مصيرية في لعبة (الرقبي[١])، بين فريقي Hurri- canes وCrusaders)[٢].

- وهل ستشاهدونها هنا.

قلتها وأنا أرمق جهاز التلفاز الصغير العتيق ذا (١٤ بوصة)!

- بالطبع لا، سوف نذهب إلى بار مخصص لهذا الغرض، حيث توجد به شاشة عرض عملاقة، وسنشاهد المباراة هناك، ستأتي معنا.. أليس كذلك؟

ابتسمت في داخلي، سهرة في (بار)، لأتابع مباراة في لعبة لا أعرفها، ومع (أدموند، وطقم العجائز هذا!)... لم تكن هذه مقومات السهرة المثالية.

وقلت محاولاً إغاظته:

- بودي أن أذهب، لكن يبدو أن البار المتجهين إليه لا يقبل دخول

(١) الرقبي (rugby) لعبة شبيهة بلعبة كرة القدم الأمريكية.

(٢) فرق (رقبي) نيوزيلندية مشهورة (www.rugby.co.nz).

من هم أقل من (٦٠) سنة، وحتى لو سمحوا لي فأنت تعرف أنّي لا أستطيع مقاومة فتنة النساء وهنَّ في هذه السن.

ضجوا بالضحك، والتفت نحوي (أدموند) وهو يقول بعينين هائمتين:

- ومن يستطيع فعل ذلك يا فتى؟!

لم أتمالك نفسي،

وبدأت أضحك،

إذًا فمسرحية (مراهق في الخمسين) لم تأتِ عبثًا!

قاطع حديثنا العجوز الذي كان يقلب قنوات التلفاز، وهو يقول:

- أنصتوا ... هناك خبر قد يهم (محمد).

التفتُّ ناحية التلفاز محاولاً التركيز في شاشته الصغيرة،

بالفعل هذه المناظر من بلدي، وكان مكتوبًا على الشاشة:

- (عاجل: عملية انتحارية بالرياض، وسقوط العديد من الضحايا).

آه يا وطني... لقد تغيرت كثيرًا، من كان يتوقع أن تصاب مدينتي الحبيبة بمثل هذه الأمراض العصيبة، ومن كان يتخيل أن ينتشر الدمار والتخريب فيها!

كان المذيع يتحدث عن الحدث المريع، وعدد القتلى والجرحى، والجهات القائمة خلف مثل هذه العمليات، ومدى تأثيرها على سعر البترول.

التقط (أدموند) الكلام الأخير والتفت نحوي ينظر إليّ بعينين حائرتين، جعلتني أشعر بأن هناك من يتعاطف معي، ويشعر بمعاناتي، فهناك تفجير وقتل في بلدي، وكدت أشكره على شعوره وتعاطفه، ولكنه عاجلنا بقوله:

- ماذا؟! تأثيرها على سعر البترول!! كل شيء إلا البترول، سيرتفع الآن ليصل إلى أرقام قياسية، وعندها لن أتمكن من قيادة سيارتي لعدة أيام.

شعرت بسخرية مريرة، وابتلعت مشاعري، وأخفيتها في أعماقي، خصوصاً عندما وافقه الجميع، فمهما يكن فنحن بالنسبة لهم حقل كبير لضخ البترول، ولا يهم ما يجري به، مادام يحافظ على وصول المنتج بشكل وبسعر جيّد، كالبقرة التي تنتج الحليب، فلايهم ما تتعرض له مادامت محافظة على كمية وجودة الحليب!

انتزعني من أفكاري صوت أحدهم وهو يقول:

- إذا أردنا أن نتابع تلك المباراة، فلابد أن نذهب الآن، فإن تأخرنا فسنفقد مقاعدنا، التي تعبت حتى تمكنت من حجزها.

- (محمد) أأنت متأكد أنك لا تريد الذهاب معنا؟

- (شكرًا لك)، لكني أفضل البقاء لوحدي.

غادروا بصخب وأنا أشك في عودتهم قبل منتصف الليل، وأشك كذلك في عودتهم بكامل قواهم العقلية!

كانت ساعتي تشير إلى السادسة إلا ربعا،عندما برزت في ذهني فكرة، لماذا لا أذهب إلى المسجد؟

خرجت من الباب بسرعة، ووجدت (أدموند) يهم بركوب سيارته وحده، فالتفت نحوي وقال:

- هل غيرت رأيك بشأن المجيء معنا؟

- بالفعل غيرت رأيي... ولكني أريد الذهاب إلى المسجد، والمكان الذي تقصده في وسط المدينة،فأعتقد أنه على طريقك!

كنت أعلم أنه ليس كذلك، ولكني استغللت بطء استيعابه، وركبت معه، وقلت له:

- هيا لننطلق بسرعة، فلا أريدك أن تتأخر على أصحابك.

انطلق (أدموند)، وبعد أن اجتزنا نصف المسافة التفت نحوي وهو يقول:

- لكن... المسجد ليس على طريقي إلى وسط المدينة؟

تصنعت الدهشة متجاهلاً معرفتي بذلك، وقلت له:

- حقًا؟!... لم أكن أعرف ذلك، لقد اعتقدت أنه قريب من الموقع الذي ستتجه نحوه، على العموم ها نحن نقترب منه، فشكرًا لك.

لم يعجبه ردي، وما فعلته به، خصوصًا بعد أن جعلته يعبر إلى النصف الآخر من المدينة، فأردت أن أسليه، فالتفتّ نحوه قائلاً:

- بإذن الله سوف ينتصر الفريق الذي تشجعه، وسيأخذ البطولة، أليس كذلك؟

تحدث (أدموند) كثيرًا عن فريقه، وعن مدى براعته في انتزاع فرص الفوز، وعن مدى ظلم الحكام لهذا الفريق (يبدو أن قضية الحكام ليست قضية محلية فقط!).

كان (أدموند) يود مواصلة الحديث، غير أن وصولنا إلى المسجد أنقذني من كل هذا، فشكرته ونزلت من السيارة.

دخلت مع بوابة المسجد، واستوقفني صوت ليس بالغريب يقول:

- محمد!، ماذا تفعل هنا؟

التفتّ ناحية الصوت لأجد (عذيب) يبتسم لي وهو يدخل المسجد مع أحد الأشخاص عرّفه على أنه (زكريا) سيريلانكي مقيم في نيوزيلندا.

بعد أن أنهينا الصلاة، اقترح (عذيب) أن نتناول طعام العشاء معًا، ركبنا مع (زكريا) متجهين إلى مطعم نصحنا به في وسط المدينة، حيث يقدم اللحم (الحلال).

ترجلنا من السيارة، وشكرنا (زكريا) على مجهوده، ودعوناه للمشاركة معنا، غير أن ارتباطه بموعد آخر حال دون ذلك.

دخلنا المطعم الهندي، الذي لم يكن مكتظًا بالزبائن، فالمدينة على موعد مع الإثارة والحماسة في مباراة الرقبي الحاسمة، تقدم نحونا شاب أسمر مرحبًا، ويقول متبسمًا:

- السلام عليكم، اسمي (محمد برهان)، سأكون في خدمتكم هذه الليلة.

وأشار إلى إحدى الطاولات الفارغة، وتابع قائلاً:

- بإمكانكم الجلوس هنا، أو في أي مكان آخر تفضلون.

اخترنا طاولة وجلسنا عليها، كان موضوعًا عليها ورقة ما، أشار (عذيب) إلى هذه الورقة وهو يقول:

- انظر ما هو مكتوب هنا.

كانت عبارة عن قائمة للمشروبات وضع فيها اسم المطعم، وكُتِبَ تحته وبخط صغير (Halal Food)[1]، بينما كتب تحتها وبخط عريض يتوسط الورقة (Wine List)[2]!!

وعندما عاد (هارون) بما اخترناه من طعام، سألته:

---

(١) مذبوح حسب التعاليم الإسلامية (حلال).

(٢) قائمة الخمور!

- أمتأكد أنت من جميع الأطباق هنا (حلال)؟!

- بالتأكيد، فأنا شخصيًا أشرف على ذلك، بل إن الطباخ لدينا مسلم أيضًا، وإن كنت في شك فتفضل معي، وسأريك كل ما تريد أن تعرفه.

- هون عليك، فأنا أصدقك، لكن ما تقول في هذه الورقة، أم أن هذه الخمور (حلال) أيضًا؟

وأشرت إلى الورقة التي كانت موضوعة على الطاولة، وعندما رأيت شحوب وجهه، وتعرق جبينه قلت له متبسمًا:

- على الأقل، إذا لم يكن بمقدوركم إلغاء مثل هذه المشروبات،فحاول أن تحذف كلمة (حلال) من على هذه القائمة، حتى يزول الالتباس، ما رأيك؟

- بالفعل، معك حق فيما تقول، لم ننتبه لهذا مسبقًا، سوف أبلغ مدير المطعم بذلك.

كان المكان هادئاً، وزاد من جماله بساطة (عذيب) وعفويته، وأما الأكل فكان حارًا ولذيذًا! وعندما أردنا المغادرة، قمت بالسؤال عن المبلغ المطلوب دفعه، قال لي (هارون):

- مدير المطعم يقول: إن عشاءكما لهذه الليلة على حساب المطعم، ترحيبًا بكما لأنها أول مرة لكما هنا، وتقديرًا لحرصكما، وعرفانًا بملاحظاتكما القيّمة.

كانت مفاجأة رائعة، وخصوصًا عندما تقدم لنا رجل في أواخر الأربعينيات، أسمر اللون، قدّم نفسه باسم (كريس) مدير المطعم، يشكرنا على الملاحظات القيّمة التي أبديناها، وأصر على توديعنا بنفسه إلى باب المطعم.

خرجت مع (عذيب) الذي أخذ ينظر إليّ بخبث وهو يقول بابتسامة عريضة:

- لو كنت أدري أن الطعام سيكون مجانًا، لطلبت أغلى الأصناف.

التفتّ نحوه مبتسمًا وأقول في نفسي: (شكل الأخ سعودي!)، أخذنا نتجول في المدينة الغارقة في الظلام في طريقنا إلى (محطة الحافلات) ليمضي كل منا إلى منزله.

كنت مستمتعًا بالجو البارد والصمت المحيط بنا، لا يقطعه سوى وقع أقدامنا على الطريق، استمر بنا الحال هكذا لمدة طويلة، نمخر عباب الشارع الطويل وكل منّا غارق في تأملاته، منتشيًا بالسكون الذي يعم المكان، طال بنا المسير، والتفتّ نحو (عذيب) وقلت:

- أين نحن الآن، وهل مازالت المحطة بعيدة؟

التفت ناحيتي، وهو ينظر إليّ بتعجب وهو يقول:

- لا أدري.. فأنت من يمشي وأنا أتبعك.

لم أتمالك سوى أن أضحك، وبصوت شق سكون المساء، قلت له:

- لقد كنت أتبعك أنت، لقد اعتقدت أنك تعرف المنطقة.

- ماذا... هذه المنطقة، وهذا الشارع بالذات؟ أجننت يا محمد؟

كنّا قد دخلنا إلى شارع فسيح، أكثر حياةً من سابقه، قرأت اسمه بصعوبة على لوحة معلقة (شارع مانشستر).

أتذكر أنّي قرأت أن هناك أمرًا ما متعلقًا بهذا الشارع، لست أدري ما هو الآن، التفتّ ناحية (عذيب)، وقلت متعجبًا من طريقة رده:

- يبدو أنك ملم بهذا الشارع، هل يفضي إلى المحطة؟

- ماذا؟! أنا ملم بمانشستر؟ محمد أرجوك.. كل شيء إلا هذا؟

أحسست بنبرة غضب في صوته لم أجد لها مبررًا، فحاولت أن أفهم لماذا، لذلك عدت وسألته:

- لماذا غضبت؟ أريد فقط أن نصل إلى محطة الحافلات، وبعدها سيذهب كل منا إلى حال سبيله، لا ضرورة لكل هذه الشحناء.

كنت أبحث عن أي شخص لنسأله، لمحت من بعيد خيال امرأة تقف في انتظار أحد ما، وقلت له:

- دعنا نسأل تلك المرأة عن المحطة.

التفت نحوي بغضب وهو يصيح قائلاً:

- محمد، إذا كنت من تلك النوعيات، فاذهب أنت وتحدث إليها، ولكن لا تدخلني في هذا؟

من أشد الأشياء التي أكرهها أن أخوض في أمر أجهله، لذا مسكت يده، وأوقفته وقلت له:

- لحظة... أنت تتكلم برموز عجيبة منذ أن دخلنا هذا الشارع، قل لي ماذا في ذهنك؟

- ماذا؟ ألا تعرف (مانشستر)؟ لا تحاول أن تكون ذكيًا، فسمعته السيئة ضاربة في الآفاق.

- (سمعة سيئة ضاربة في الآفاق؟) عمَّ تتحدث يا عذيب، كل ما أعرفه عن هذا الشارع أنه أحد الطرق المؤدية إلى وسط المدينة، وأنه مليء بالحانات والـ ... !

توقفت عن الحديث وأنا أسترجع كل ما كتب عن الشارع في كتيب (Lonely Planet)[1]، قال عذيب حينها:

- بالضبط.. هذا ما كنت أقصده، فهذا الشارع هو مكان معروف

---

(١) Lonely Planet: شركة متخصصة في إصدار الأدلة السياحية للدول والمدن.

لبائعات الهوى، فانظر إلى الملابس المتكشفة التي تلبسها تلك المرأة التي أردتنا أن نتوقف لسؤالها، لذا رجاءً يا محمد دعنا نغير الطريق.

انحرفنا إلى طريق جانبي، وسرنا محاذين للنهر الذي يشق المدينة، وتوقف (عذيب) وفتح حقيبته وهو يبحث عن شيء ما! سألته:

- ما الذي تبحث عنه؟

- عن خريطة المدينة، أذكر أني وضعتها هنا.

أمسكت يده، وقلت له:

- أمجنون أنت؟ آخر شيء تريد أن تظهر به الآن هو منظر السائح الضائع، فعندئذ ستكون هدفًا واضحًا لمن يستهدفك، ولن يكون هناك أحد لمساعدتك، انظر حولك جيدًا!

كنّا نمشي في شارع جانبي مظلم، والعديد من السيارات أوقفت هناك، ولا وجود للبشر في هذا الطريق المقفر!

بدأت ظلمة الليل تزداد، والجو يزداد برودة، والطريق الطويل المتعرج يبدو بلا نهاية، كنت أعرف أننا نسير في الطريق الصحيح، فمازلنا نمشي محاذين للنهر الوحيد في المدينة، لكني لم أعتقد أن تكون الطرق بهذا الشكل، ما أسهل الأمر عندما تنظر إلى الخريطة

وتتابع مسارات الطرق، ولكن عندما تمشي عليها تعرف أن (الخريطة ليست هي المنطقة).

كنت أتأمل الأشجار الباسقة، الممتدة على طول النهر، وأقول في نفسي: لعلها تحت ضوء الشمس لا تبدو بهذا المنظر البشع المخيف.

انتبهت إلى يد (عذيب) تشد على يدي بقوة، والتفتّ ناحيته ووجدته يشير بطرف عينه القلقة إلى إحدى الزوايا، التفتّ بقلق إلى المكان الذي أشار إليه، ووجدت أربعة شبان يلبسون ملابس غريبة، بالية، واسعة، متنافرة الألوان، ينظرون نحونا!!

لن أتظاهر بالشجاعة وأقول بإني لم أكن خائفًا، فلقد كنت مرعوبًا، فالجو يبعث على الرعب من دون أي تدخل بشري، فالظلام دامس، والنهر قريب، والأشجار تغطي الأفق، والمنطقة مهجورة، كل هذا يجعلك تتوقع أن يخرج لك أي شيء في أية لحظة، غير أني احتفظت بكل مشاعري في داخلي، والتفتّ نحو عذيب وقلت له:

- اتبعني، ولا تتحدث، اترك الأمر كله لي.

تقدمت نحو مجموعة الشبان، كانوا من (الماوري) بأجسامهم الضخمة، اقتربت محاولاً أن أرسم ابتسامة واثقة، أخذت نفسًا عميقًا، وقلت لهم:

- مساء الخير، أعرف أن هناك مباراة مهمة ستقام اليوم، ولكني للأسف لم أتمكن من مشاهدتها في المنزل، ولقد سمعت أنها تعرض في بار قريب من هنا، على شاشة عملاقة، وللأسف نسيت اسمه.

- أها .. لقد وصلت، فقط تقدم نحو شارع (كولومبو)، وستجده أمامك.

وأشار إلى الأمام، حيث كنّا نقصد، إذًا نحن على الطريق الصحيح، بقي فقط أن أتخلص من هذا، فقلت له:

- شكرًا لك، لقد كنت وصاحبي نبحث عنه منذ مدة، شكرًا مرة أخرى.

- انتظر!

... وبدأت المتاعب...

هكذا كنت أفكر وأنا أقف أمامه محاولاً أن أبدو واثقًا، وانتظرت أن يتكلم، فقال:

- معذرة... لكن هل أنت عربي؟

لم أكن أدري بماذا أجيبه، فربما لو قلت (نعم)، لتعرضنا للمتاعب، ولكن هل كانت (لا) ستنجينا؟

لم يكن أمامي سوى أن أجيبه:

- نعم.. بالفعل أنا عربي، من الشرق الأوسط.

- (.. أوه..) السلام عليكم (أخي)، لقد توقعنا أن تكون كذلك، أنا مسلم اسمي (عبدالله)، وهؤلاء أصحابي.

لم يكن أمامي سوى أن أبتسم، فلقد زال كل ما بي من توجس ورهبة، وبعد أن تبادلنا التحايا، قال لي (عبدالله):

- آسف لتطفلي... ولكن لماذا تذهب إلى (البار) وأنت مسلم؟

أُسقط في يدي، وأنا أتذكر مقولة: (حبل الكذب قصير)، وابتسمت محرجًا وقلت:

- في الحقيقة، نحن نريد الوصول إلى شارع (كولومبو)، لنذهب إلى محطة الحافلات، وبما أني كنت أعرف أن هذا البار يقع على ذاك الشارع سألت عنه.

انفجر (عبدالله) وأصحابه في ضحك قوي، وهو يقول:

- لقد استطعت خداعنا، لقد ظننت أنك ذاهب إلى هناك بالفعل، لا تقلق سوف أوصلكم إلى محطة الحافلات، فهي بعيدة من هنا، وأنا في طريقي إلى هناك.

ودع أصحابه، ومشى معنا، وهو يتحدث عن نفسه، كان

(عبدالله) شابا في العشرين من عمره، أسلم منذ ثلاث سنوات، عندما أسلم والداه، فزميل والده في العمل (كيوي[١]) مسلم، وكان يتابع دعوة والديه حتى أسلما.

كان وجود (عبدالله) معنا مفيدًا، فقد نفى عنّا صفة السيّاح، وجعلنا نبدو من أهل البلد، ورغم طول الطريق إلا أن وجود هذا الشاب المرح جعله يبدو قصيرًا، وعندما وصلنا إلى المحطة تبادلنا أرقام الهواتف، وتواعدنا لرؤية بعضنا في المسجد يوم الجمعة.

ركبت الحافلة، متذكرًا كل ما مر بي اليوم.

شلة (أدموند) القابلة للكسر.

العشاء المجاني.

شارع (مانشستر).

(عبدالله).

دخلت المنزل، والهدوء يلف أرجاءه، توجهت لغرفتي وفتحت جهازي واتصلت بالإنترنت، كان بريدي يعج بالرسائل من أصدقائي،

فالعزيز (متعب) بعث لي بتصميم رائع أهداه لي.

---

(١٠) الشعب الكيوي: الشعب النيوزيلندي ذو الجذور الأوروبية، و(الكيوي) نسبة إلى طائر الكيوي.

و(بسام) يرسل لي أشواقه بكلمات مؤثرة.

و(زياد) التقط صورة لمنزلنا وكتب عليه (اشتقنا لك أوي!)...

بل أنا من (أشتاق لكم أوي!)

١٠

نهاية البداية



مقولة نيوزيلندية

Kia mau Ki to Maoritanga

حافظ على عاداتك وثقافتك الحسنة

لحظات الوداع من أصعب اللحظات التي قد تواجه البشر، وغالبًا ما تتساقط الدموع على عتبات الوداع، في صالات المطارات، وفي محطات القطارات... وفي المقابر!

ومهما تكن قويًا أو متظاهرًا بذلك، ففي لحظات كهذه تنكشف نفسك، وتختفي ورقة التوت التي تحاول أن تغطي بها مشاعرك.

كان هذا ما يجول في ذهني بعد أن قال لي (عذيب):

- (محمد)، سأغادر إلى بلدي يوم الجمعة!

- الجمعة؟ أيُّ جمعة؟

- الجمعة القادمة.

فتحت فمي مندهشًا من هذه المفاجأة المحزنة، أستتركني بالفعل يا (عذيب)، وأنا الذي وجدت فيك السلوى من هذه الغربة المريرة، وفي صحبتك الأنس بعد أن ذقت طعم الغربة القاسية، كان شريط الذكريات يمر أمام ناظري، فلن يكون هناك بعد اليوم (عشاء مجاني)[١]، ولا (تغشيش في الامتحان)[٢]، كادت الدموع تطفر من عيني، وصدري يهيج بالمشاعر، هل يعقل أن تكون كل هذه العاطفة مختزنة داخلي؟

---

(١) الفصل التاسع.

(٢) الفصل الرابع.

- ماذا دهاك يا (محمد)؟

سمعت هذا الصوت قادم من بعيد، ينتشلني من أعماق ذكرياتي، وأحزاني! وعندما رفعت رأسي وجدت (عذيب) ينظر إليَّ في قلق، وهو يتابع قائلاً:

- هل أنت بخير؟

- .. نعم.. شكرًا.. فقط كنت أفكر في أمر ما.

كنا نجلس في الطابق السادس في المعهد، نستمتع بأشعة الشمس الدافئة، خصوصًا مع اشتداد البرد، فدرجات الحرارة مازالت مستمرة في النزول، فبالرغم من سطوع الشمس في ظهر هذا اليوم إلا أن درجة الحرارة كانت تقارب ثلاث درجات مئوية!

كان (عذيب) يتحدث بحماس عن رحلته، ويعبر عن مدى فرحته بعودته إلى أهله، وحديثه يزيدني همًا وحزنًا، عندما سكت فجأة، وقال لي:

- (محمد) ألن تجيب على هاتفك؟

انتبهت على صوت رنين يصدر من جيب معطفي، أخرجت الهاتف وألقيت نظرة على الرقم المتصل، كان الرقم لهاتف ثابت من نفس المدينة، قطبت حاجبي، وضغطت على زر الإجابة وأنا أقول:

- مرحبا؟

رد علي صوت أنثوي يقول في تردد:

- السيد (محمد)؟

- نعم، ماذا أستطيع أقدم لكِ؟

- أوه... أهلا (محمد)،أنا (هيلاري)، لقد أعطاني (وليد) رقم هاتفك، وطلب مني البحث عن سكن لك.

- أهلا بك.. نعم لقد أخبرني بذلك.

- جميل.. لقد وجدت لك سكنًا لدى عائلة مكونة من رجل وزوجته، متقدمين في السن، لديهما من الأولاد ستة، أصغرهم في الثلاثين من عمره، ولا يقيمون معهم حاليًا، سيكون الدور العلوي لك بالكامل، وهو مكون من غرفتين، ودورتي مياه...

- في الحقيقة.. لا أدري، ولكن البيت يبدو...

- اسمع يا (محمد) خلال عملي في هذا المجال، يُعد هذا المنزل من أفضل المنازل التي أنصح بها، فـ (جون) و(سالي) مميزان للغاية، ولن تجد أفضل منهما، خصوصًا أنه قد سبق لعرب السكنى معهما، ما رأيك؟

- لا بأس، هل بالإمكان أن ألقي نظرة على المكان قبل أن أنتقل إليه؟

- بالتأكيد... سوف أتصل بك لاحقًا لأرتب لك هذه العملية.

أنهيت الاتصال وأنا مندهش من إصرار هذه المرأة وحماسها لمسألة انتقالي إلى السكن الجديد، وبالرغم من أن (أدموند) لم يعد بذلك السوء خصوصًا بعد أن قللت الاحتكاك به، والابتعاد عن إلقاء التعليقات عليه.

- يبدو أنه كان اتصالاً أسعدك للغاية؟

رفعت بصري ليقع على عيني (عذيب) المبتسم، وهو يشير إلى هاتفي الذي مازلت ممسكًا به، وقلت محاولاً إغاظته:

- كل اتصال يُريحني من سماع صوتك... هو اتصال سعيد.

انفجر ضاحكًا والدموع تنهمر من عينيه، ويقول:

- أوه يا (محمد)، سوف أفتقدك حقًا،.... تعال نفعل شيئًا مجنونًا!

- دعني أفكر... شيء مجنون !... وجدتها!.. أقترح أن تقفز من شرفة الدور السادس، وسأبقى لمشاهدتك، ما رأيك؟

- (مضحك جدًا!)

نظرت إلى ساعتي التي أشارت إلى الثالثة عصرًا، عندما نزلت معه إلى الدور الخامس، حيث كنّا على موعد مع بعض الشباب، لنؤدي صلاة العصر جماعةً.

خرجت بعد ذلك متوجهًا إلى المنزل، وأنا أحاول أن أجهز ما سأقوله (لأدموند) وكيف سأشرح سبب خروجي من عنده؟

عندما وصلت إلى المنزل، كانت سيارة (أدموند) في مكانها المعهود، دخلت المنزل وأنا مازلت محتارًا فيما سأقول، فلا أريد أن أجرح مشاعره، وعندما وقعت عيناي عليه، كان جالسًا على جهاز الكمبيوتر، وظهره يحجب الشاشة عني، وهو يحدق فيما هو معروض عليها، وممسك بيده الأخرى هاتفه المحمول، ويحادث من معه هامسًا، وبدا منسجمًا مع ذلك.

كرهت أن أقتحم خلوته، فأصدرت صوتًا لأخبره بأني هنا، ولكنه كان غائبًا في عالم آخر، اضطررت إلى أن أتنحنح بقوة، ودون فائدة!

عندها قلت بصوت مرتفع:

- مساء الخير (أدموند).

انتفض من مقعده، والتفت بفزع، محاولاً حجب الشاشة عني، ويغلق هاتفه من دون أن يودع من يحادثه، وهو يقول لاهثًا:

- أهذا أنت يا (محمد)؟ لقد أفزعتني.

- أنا آسف، لكني حاولت لفت انتباهك، ولكنك كنت فيما يبدو منهمكًا في شيء آخر.

قلتها وأنا أشير إلى شاشة الجهاز، عندها ابتسم محرجًا، وهو يلتفت ليتأكد أنه مازال يحجب بجسده الشاشة الصغيرة، وعاد

نحوي مرة أخرى، وهو يبتسم مرتبكًا، ووجهه محمر من الحرج الواقع فيه، شرقت بي الظنون وغربت، وبعدها قلت:

- يبدو أنك مشغول بأمر خاص! أستأذنك.

لم أنتظر منه ردًا عندما قفلت راجعًا واتجهت نحو غرفتي،وأنا أقول في نفسي: (سوف أحادثه بشأن الانتقال لاحقًا) عندما أتاني صوته ينادي:

- (محمد)... أريد مساعدتك في أمر ما؟

عدت مرة أخرى إلى غرفة الجلوس، وجدته قد قام من الكرسي المقابل للجهاز ويقول:

- إني أنتظر بريدًا من زوجتي، قالت إنها أرسلته منذ مدة، ولكني لم أستقبل أي شيء، هل تستطيع مساعدتي؟

(بريد من زوجتك!!)..

سأفترض حسن النية وسأساعده، جلست على الكرسي، ووجدته قد فتح برنامج البريد الإلكتروني (Microsoft Outlook)، وكانت آخر رسالة تم استلامها مؤرخة منذ شهر، كان كل شيء يبدو سليمًا، عندما اقترب نحوي، وانحنى بجانبي وتسللت إلى أنفي روائح تنافس في عطريتها كل المبيدات الحشرية التي شممتها من قبل!

كتمت أنفاسي محاولا إبقاء الهواء في رئتيَّ قدر الإمكان، وعندما أحتاج إلى الهواء فإني أتنفس من فمي لكيلا أشم رائحته العطنة، التي أفقدتني كل قدرة على التركيز، وأنا أحاول أن أجد حلاً لمشكلته، وقلت له، وأنا أدير فكرة ما في ذهني:

- هل عادة أنت من يجري الاتصال بالإنترنت؟

- لا ... عادة زوجتي تتولى كل شيء!

- أها ... إذًا دعنا نراجع كل شيء منذ البداية، هل سلك الهاتف متصل بالجهاز؟

- أ.. أ.. أعتقد ذلك، فلقد احترت في أي المنفذين يجب أن يوصل.

(أعتقد !!) آه يا (أدموند)، نزلت إلى الجهاز وتأكدت من أنه بالفعل كان متصلاً بالمنفذ الصحيح، رغم كل شيء لست سيئًا للغاية أيها العجوز. وقلت له:

- جميل، لقد تأكدنا من صحة التوصيل، بقي سؤال مهم، كيف تتصل بالإنترنت؟ وأعتقد أنك فعلت، أليس كذلك؟

- فعلت ماذا؟... أليس من المفروض أن يتم الاتصال آليًا؟ ألم يقولوا بأن أجهزة الحاسب الآلي أجهزة ذكية!

- هي بالفعل أجهزة ذكية، إذا كان من يتعامل معها كذلك! فهي أجهزة تنفذ ما تريد، ففي حالتنا هذه هذا الجهاز لم يُحضر لك بريد زوجتك لأنك لم تقم بالاتصال بالإنترنت.

- ولكني أوصلت سلك الهاتف.

- (لا حول ولا قوة إلا بالله...).

أن يكون المرء غبيًا فهذا أمر لا اعتراض عليه أبدًا، ولكن عندما يكون كذلك، ويشكك ويعيد النقاش في النقطة التي تم شرحها له، كما فعل معي (أدموند)، فهذا أمر لا يحتمل.

بعد أن أجريت الاتصال، فتحت برنامج البريد الإلكتروني الذي يستخدمه، وبدأت الرسائل في الوصول إلى بريده، عندها قمت من الكرسي وأشرت إليه أن اجلس لكي تقرأ رسائلك، وخرجت خارج المنزل، فلقد كنت في حاجة ماسة إلى هواء نقي، أعيد به الصفاء إلى نظام التنفس لدي، كانت الشمس على وشك المغيب، والسحب تتناثر في السماء.

أخذت أمشي في الشارع الطويل، إلى أن وصلت إلى حديقة كان بها عدد لا بأس به من الناس، فهناك مجموعة من الأطفال يلعبون لعبة ما، وبعض الأشخاص يمارسون رياضة الجري، جلست على مقعد في طرف الحديقة، وأنا مستمتع برؤية عدد من الأطفال يلعبون لعبة تزلج على ألواح خاصة، عندما اخترق هدوء المكان صوت رنين هاتفي، كانت المتصلة (هيلاري)، إذ ستأخذني لرؤية المنزل الجديد، ضغطت على زر الإجابة:

- مرحبا.

- أهلا (محمد)، أنا (هيلاري) سأكون أمام المنزل خلال دقائق، هل أنت هناك؟

- سأكون بانتظارك.

غادرت الحديقة باتجاه المنزل، وعندما وصلت إليه، وجدت سيارة بيضاء تستعد للوقوف، خرجت منها امرأة تخطت دون أدنى شك حاجز الستين، فالشعر الأبيض، والوجه الذي ترك فيه الزمان آثاره، أكبر ما يدل على ذلك.

تقدمت نحوي وهي تقول:

- أهلا.. أأنت (محمد)؟

- نعم.. أنا (محمد).

أشارت إلى السيارة وهي تقول:

- معذرة، فلقد اصطحبت معي (حفيدي)، فسأتركه في بيت صديقه في طريق عودتنا، أتمنى ألا يزعجك هذا.

- لا بأس بذلك.

كان الحفيد يركب في المقعد الأمامي، انتظرت أن ينزل ويجعلني أركب في هذا المقعد، وخصوصًا وأنا أكبر منه سنًا، فمازال فتى يافعًا في الخامسة عشرة من العمر، ولكن يبدو أن هذا المفهوم لم يصل إليهم بعد، تنازلت عن عرش كبريائي.. وحشرت نفسي في المقعد الخلفي.

لقد بدأت التعود على نظام القيادة هنا، ولكني لم أتعود على منظر امرأة في سن والدتي... تقود بي! كانت السيارة تخترق الطرق والشوارع إلى أن انحرفت إلى طريق جانبي، وتوقفت (هيلاري) وهي تشير إلى منزل وتقول:

- ها نحن هنا.

نزلت من السيارة وأنا ألتفت جهة المنزل الفاخر، الذي كان مبنيًا بالطوب الأحمر، كانت هناك سيارتان رائعتان تقفان عند بابه، الأولى كانت سويدية الصنع من إنتاج هذه السنة، والأخرى سيارة عائلية جديدة أيضًا.

اقتربنا من الباب و(هيلاري) تشير إلى السيارات وهي تقول:

- (جون وسالي) يعرفان كيف يرفهان عن أنفسهما.

فُتِحَ الباب ليكشف عن رجل كبير في السن، في حلة نظيفة، حمراء اللون، وابتسم عند رؤيتنا ورحب بنا قائلاً:

- مرحبًا بك، لابد أنك (محمد).

قال هذا وهو يمد إليّ يده، ويدعونا إلى الدخول.

لم يكن المنزل كبيرًا، وإن كانت لمسات الثراء واضحة للعين، و(جون) يقودنا إلى غرفة جانبية، وعندما فتح الباب فوجئت بأنه يقودنا إلى المطبخ المطل على غرفة الجلوس الفاخرة، كان المنزل

مكونًا من طابقين، في الأسفل تقع غرفة الجلوس والمطبخ بالإضافة إلى غرفة للضيوف، وفي منتصف الدرج يقع جناح خاص لجون وسالي، وعندما تواصل الصعود للدور الثاني ستجد في انتظارك غرفتي نوم، ومكتبًا صغيرًا لاستخدامات الحاسب الآلي، ودورة مياه فاخرة (بجاكوزي، وكبينة استحمام مجهزة بأجهزة غريبة!)، فتح (جون) إحدى الغرف الجانبية وقال وهو يدعوني للدخول:

- تفضل.. هذه ستكون غرفتك.

كانت الغرفة كبيرة، بنافذتين تسمح بدخول أشعة الشمس طوال النهار، ومكتبة كبيرة تملأ أحد جدران الغرفة، وسرير كبير أنيق، كانت الغرفة أقرب ما تكون إلى تحفة فنية، تخشى أن تلمسها مخافة أن تفسدها، فما بالك بالعيش فيها.

خرجت من الغرفة منبهرًا، وجون يقول لي:

- سيكون الدور العلوي لك بالكامل، طوال مكوثك لدينا.

اتفقنا على أن أنتقل إلى المسكن الجديد يوم الغد، وعندما خرجت من عنده، لم أكن في مزاج للعودة إلى (أدموند)، فالتفتّ نحو (هيلاري) وقلت لها:

- شكرًا لك... على إيصالك لي، وعلى اختيارك المذهل، يبدو أني سأرتاح هنا.

- لا شكر على واجب، اركب الآن سأعيدك إلى المنزل.

- لا أريد العودة، سوف أذهب بنفسي فيما بعد، وخصوصًا أن المنطقة ليست بغريبة عليّ، فبيت (أبوحاتم) ليس ببعيد عن هذا الشارع، وسأمشي إليه.

- لا بأس، مادامت هذه رغبتك.

أسرعت الخطى نحو منزل (أبوحاتم) الذي كان يبعد عن المنزل الجديد أقل من الكيلو الواحد، متأملاً الأفق المصطبغ باللون الأحمر، وأدقق النظر في السحب المتفرقة، والتي كونت مع الأشجار أجمل اللوحات التي يمكن أن يتخيلها أي فنان.

كان صوت خطواتي يقطع صمت المنطقة المحيطة بي، غارقًا في تأملاتي، مستمتعًا بالمنظر الرائع، كانت الشمس حينها قد غربت، ومازال نورها في رمقه الأخير، وانعكاسه على السحب يمنحها لونًا أحمر جميلاً للغاية.

كان منزل (أبوحاتم) غارقًا في الظلام عندما وصلت إليه، اقتربت من المدخل أبحث عن أحد في الداخل، ولكن لا أثر للحياة بداخله. قرعت الباب، ودون أية إجابة، حاولت أن أنتظر أمام المدخل، فربما ذهب الشباب إلى المسجد وسيعودون قريبًا، ولكن البرد الشديد والظلام الدامس اللذين بدأا يلفان المكان، لم يشجعاني على الاستمرار في تنفيذ هذه الفكرة، لذا حزمت أمري

وقفلت راجعًا، متوجها نحو الشارع الرئيس لكي أستقل الحافلة إلى وسط المدينة ومن ثم أركب حافلة أخرى إلى منزل (أدموند).

سلكت طريقًا مختصرًا نحو أقرب نقطة لتوقف الحافلات، وجلست على الكرسي الخشبي المتهالك أنتظر الحافلة، كان على المقعد الخشبي بعض الكتابات والتعليقات، فهذا (الفريق أفضل الفرق)، و(يسقط الفريق الفلاني)، لم أتمالك نفسي من الابتسام، فيبدو أن بعض التصرفات ليست محلية فحسب، بل تجدها غالبًا في كل مكان.

أقبلت الحافلة بعد مدة وجيزة، وصعدت إليها، وعندما مررّت بطاقةَ الحافلة في مكانها المخصص، تبين أنها فارغة، التفت إلي السائق وقال:

- يبدو أنك قد استهلكت ما في بطاقتك من نقود. هل تريد تعبئتها؟

إن نظام (بطاقة الحافلات) هو أن تشتري بطاقة بها مبلغ من المال، وعندما تركب الحافلة تمرر البطاقة في مكان مخصص لها، وتخصم المبلغ آليًا، وعندما تفرغ البطاقة فبإمكانك إعادة تعبئتها أو أن تدفع قيمة استقلالك للحافلة إلى السائق مباشرة.

ابتسمت له وقلت:

- بالتأكيد، أتمنى أن تعيد تعبئتها بهذا المبلغ لو سمحت، ومددت له فئة ١٠ دولارات.

جلست على أقرب مقعد وأسندت رأسي على مسند الظهر، وأغمضت عيني، وأرخيت لسمعي العنان، في صغري كنت أحب أن أجرب لعبة رائعة، كنت أحب أن أركز سمعي حول صوت بعيد، وأبدأ في عزل الأصوات التي تشوش عليه، حتى يصبح هذا الصوت البعيد أقرب ما يكون، وفي الحافلة بدأت أتصفح الأصوات، عندما شدني صوت لغة غير الإنجليزية، كانت تشبه العربية، ولكنها لم تكن كذلك!

استرخيت أكثر، وشحذت كل قدراتي في التركيز السمعي، ووجهت نحو ذاك الصوت البعيد، وبدأت أعزل الأصوات الأخرى حتى بدأت تتضح بعض ملامح ذاك الصوت، بالفعل هذه ليست العربية، وإن كانت قريبًا جدًا.. واصلت التركيز والمحاولة في تحديد ماهية اللغة، وانقلبت الفكرة إلى تحد بيني وبين نفسي، وكلما تعمقت أكثر في هذه اللغة كانت عدة ملامح تتضح فيها، فمخارج الحروف متشابهة مع العربية، وإن كانت تكثر في كلماتها حروف كالخاء والشين..

مهلاً، لقد سمعت هذه اللغة من قبل، وبالتحديد في قنواتنا العربية، كالجزيرة والعربية... بالترجمة العربية بالتأكيد، كنت أحاول أن أميز شكل المتحدث في تلك القنوات بلغة شبيهة بهذه! كانت ملامح الوجه هلامية، وتتضح شيئًا فشيئًا.. أنف معقوف، وعيون جاحظة، وجبهة...، لم أتمالك نفسي ففتحت عينيّ فجأة،

والتفتّ بسرعة نحو مصدر الصوت، ففي منتصف الحافلة كان يجلس شابان بملابس سوداء،

وسوالف طويلة،

ونظارتين بإطار سميك،

... وطاقية صغيرة!

لم أكن أدري أن حركتي كانت مفاجئة وسريعة، لأنها استدعت انتباههما، وعندما التقت عيناي بعينيه، شعرت بعينيه تتجمدان، ويحل محلها كره عجيب.

أشحت بناظري بعيدًا عنهما، ولم أعد أجد الرغبة في داخلي للعودة لممارسة لعبتي في استراق السمع. كانت الحافلة حينها تتهادى نحو محطة الحافلات الرئيسة، التي أزمع أن أغير فيها الحافلة إلى أخرى توصلني إلى منزل (أدموند)، وقفت الحافلة في المحطة، وقبل أن أغادرها ألقيت ببصري بسرعة حيث يجلس صاحبا الملابس السوداء، ووجدتهما يحدقان النظر فيّ ويتبادلان الحديث همسًا، ويستعدان للنزول خلفي!

ترجلت من الحافلة، واتجهت فورًا ناحية لوحة كبيرة معروض عليها مواعيد وأوقات وصول الحافلات، بقي على موعد وصول الأخرى قرابة عشرين دقيقة.

على رصيف الانتظار وقفت غير بعيد عن صاحبي الملابس السوداء، أرمقهما في حذر، لم أرتح في مكاني، خصوصًا مع همسهما المتكرر، وتوجيه النظرات المليئة بالشك نحوي.

كانت الساعة حينها تشير إلى السادسة مساءً، وبقي على دخول العشاء قرابة نصف ساعة، ولم أؤد صلاة المغرب بعد، بعملية حسابية قصيرة أجريتها في ذهني، شددت رحلي واتجهت نحو المعهد، فبقدر قليل من حسن الحظ سأجد المعهد مفتوحًا.

حثثت السير متخذًا طرقًا مختصرة وشوارع غير مأهولة تؤدي إلى موقع المعهد، ودخلت زقاقًا ضيقًا يفضي مباشرة إلى الموقع، كنت أمشي وأسمع صدى وقع خطواتي، وأتفادى الماء الذي خلفته الأمطار، وأتابع ظلي الممتد أمامي بفعل الإضاءة الخافتة، عندما سمعت وقع خطوات أخرى، كانت فيما يبدو لشخصين، وهما يتكلمان بصوت عال، وبلغة... لم تكن الإنجليزية بكل تأكيد!

ألقيت مخاوفي جانبًا، وأنا أحاول أن أزيد من سرعتي إلى بوابة المعهد الذي بدأ يظهر في مرمى البصر، غير أن صوت الخطوات بدأ كذلك في السرعة خلفي! التفتّ خلفي محاولاً أن أعرف ماهية من خلفي، ولكني لم أتمكن سوى من ملاحظة ظلين ممتدين أمام شخصين لا تكاد تميز أي شيء من ملامحهما وهما يسرعان الخطى... نحوي.

اقتربت أكثر نحو بوابة المعهد الجانبية، أشق طريقي في النور الخافت، متفاديًا العراقيل التي تقع وسط الزقاق الضيق، محاولاً أن أصم أذني عن سماع ضحكات من خلفي، وعندما وصلت إلى الباب، كان مغلقًا وسلسلة ضخمة لُفت حوله تعلن بوضوح أن المعهد مغلق.

أُسقط في يدي، فلست أدري إلى أين أتجه، فالدخول إلى المعهد لم يعد خيارًا متاحًا، والعودة مع نفس الطريق هي الأخرى ليست فكرة جيدة!

كان الطريق يتفرع إلى طريق جانبي، فإما أن تمضي إلى الأمام أو تنحرف جانبًا في طريق أضيق من سابقه، كنت أعرف هذه الطرق فلقد سلكتها مرارًا وتكرارًا، ولكن في وضح النهار فقط، ودون ملاحقة شخصين.. لا أعرفهما.. كانت المشاعر تفور في داخلي، وأنا ألعن في داخلي المدينة وكيف انقلبت قبيحة جداً في ظلمة الليل، وخصوصًا بين هذه الأزقة والطرق.

انحرفت جانبًا، متخذًا أقصر الطرق نحو الميدان الذي يقع وسط المدينة، كان الزقاق الجديد يقع محاذيًا لفندق مشهور، غير أن الطريق نفسه كان في أسوأ ما يكون، فغالبًا ما يكون هذا الطريق موحشًا في النهار، فما بالك وأنت تمشي فيه في ظلمة الليل، رمقت المصباح الوحيد بتوسل لكي يستمر في إضاءة الطريق،

ولا ينطفئ في تذبذبه المعهود. لم أستمر وحيدًا في هذا الزقاق الضيق، فسرعان ما توقف من خلفي أمام بوابة المعهد، ثم انحرفا خلفي يتبعانني في نفس الزقاق الضيق، وتوقفت كلماتهما وازدادت سرعة خطواتهما، وكان المكان كله يردد صدى خطواتنا في تناغم واحد.. سريع، متوتر.

كانت الإضاءة غير متساوية في التوزيع، فتشتد في مكان، وتعتم في الآخر، وعندما دخلت المنطقة المعتمة، التفتّ خلفي منتظرًا من خلفي ليدخل في دائرة الضوء، توقفت ألتقط أنفاسي، والشبحان يقتربان نحو المنطقة المضيئة، وعندما غمر النور وجهيهما، لم أتردد ولا لحظة واحدة لكي أتعرف على أحدهما، فتلك الملابس، وتلك النظارة.. لم أكن لأخطئها أبدًا، التفت مواصلاً سيري، محاولاً اجتياز الطريق بأسرع ما يمكن، وعندما خرجت من الزقاق الضيق، غمر النور وجهي، وأنا أستمتع بضجيج السيارات، وحركة الناس، فمهما يكن الآن.. فلست وحدي في زقاق معتم ضيق.

عدت أدراجي داخل الزقاق وانزويت في ركن غير بعيد، أنتظر أن يخرج من كانا خلفي، فلا بأس أن أداعبهما قليلاً... بعد أن بثا الرعب في داخلي، وعندما وصلا إلى نهاية الزقاق، خرجت خلفهما، وقلت بالعربية:

- (وين رايح أنت وياه؟)

انتفضا من المفاجأة المرعبة، وصرخ أحدهما نحوي بعد أن تعرف علي، وقال:

- (الله يرجك يالشين... غرفت قلبي!)

كان (عبدالرحمن) المتحدث هو أحد الشباب السعوديين الذين يدرسون في نفس المعهد، وسبق أن التقينا معًا في مرات سابقة، ابتسمت وأنا أقول:

- بل أنتما اللذان أفزعتماني منذ البداية، فلقد ظننت أنكما من كانا معي في الحافلة قبل قليل.

- من هما..؟

- لا عليكما... قل لي: ما الذي جاء بكما هنا؟

- لقد أردنا الدخول إلى المعهد لنصلي المغرب، ولكنه كان مغلقًا، وليس هناك أي مكان يصلح لكي نصلي به.

قالها بأسى، عندما عادت إلى ذهني فكرة، كنت أرغب في تطبيقها منذ مدة، فقلت له وأنا أشير إلى الحديقة الملاصقة للساحة التي تقع في وسط المدينة:

- ما رأيكما أن نصلي هناك؟

- (وين.. في الحديقة!! .. أنت صاحي؟)

توقف للحظة ورفع عينيه عاليًا، وقطب حاجبيه، وهو يعيد الفكرة في ذهنه، ثم ابتسم وهو يقول:

- (الليلة شكلها ما راح تعدي على خير... بس قدام.)

حثثنا الخطى نحو الحديقة الملاصقة للكنيسة، وخلف شجرة حددنا القبلة، وأقمنا الصلاة، وأشرت إلى (عبدالرحمن) لكي يصلي بنا، غير أنه رفض.. وبشدة، عندها تقدمت وكبرت وبدأت أقرأ الفاتحة، كانت الآيات تنساب من داخلي وترتجف عند مخارجها، كنّا نصلي ونحن نعرف بأنه لا يفصلنا عن الكنيسة سوى عدة أمتار، كانت حركاتنا في تأدية الصلاة منظرًا أثار عددا لا بأس به من الناس، الذين وقفوا على بعد يتفرجون على هذا المنظر، بل إن السيارات التي تمر بجانبنا بدأت تهدئ من سرعتها، وبعد أن أنهينا الصلاة، التفتّ لأجد أن بعض المتفرجين أخرج جواله وبدأ في تصوير ما حصل، قال لي (عبدالرحمن) بسخريته المعهودة:

- (المفروض يعطونا فلوس، جالسين يتفرجون علينا ببلاش!).

قمت من مكاني متبسمًا، و(عبدالرحمن) يواصل قائلاً:

- (وين رايح، تعال بنتعشى سوا، بعدها رح بيتكم!)

اعتذرت منهما، فمازالت لي مهمة لم أنهها بعد، فلم أخبر (أدموند) بشأن انتقالي من منزله.

ودعتهما واتجهت نحو محطة الحافلات، وعندما وصلت هناك، كانت الحافلة التي أريد أن أستقلها تستعد للوقوف، ركبتها، واتجهت إلى آخر مقعد، لم يكن هناك العديد من الركاب، وقبل أن تنطلق، صعد شابان أسمران، وتقدما نحو مؤخرة الحافلة، وجلسا في مقاعد ليست ببعيدة عني.

انطلقت الحافلة بهدوء، أرخيت رأسي على مقعدي، غير أن إزعاج الشابين بجانبي كان عاليًا، وخصوصًا عندما بدأا يتبادلان التعليقات حول مباراة في لعبة كرة السلة، وبعد مدة انتقلا للحديث والتعليق على الركاب، ولكن بلغة أخرى...

كانت اللغة العربية!

وبلهجة أفريقية!

استمرا في الحديث لمدة طويلة، وهما يعلقان على لبس تلك الفتاة، وعلى نظارات ذاك الشاب، وحذاء تلك العجوز،... وأوسعا السائق سبًا وشتمًا، بل إني لم أسلم من حديثهما، فنالني نصيب من سخريتها بشأن إغماض عيني وإرخاء رأسي على الكرسي.

كانت الحافلة تقترب من المنزل، عندما قمت من مقعدي، متجهًا نحو بابها، عندها التفتّ ناحية الشابين وقلت لهما بابتسامة واسعة:

- (السلام عليكم شباب... كيف الحال؟)

لم أنتظر إجابة وأنا أشق طريقي نحو الباب، وعندما هممت بالنزول التفتّ نحوهما وقلت:

- في أمان الله.

نزلت من الحافلة وأنا أرى من بين نوافذها الدهشة على وجهي هذين الشابين، ونظراتهما تتعلق بي. وعندما انطلقت الحافلة، لوحت لهما أن (مع السلامة).

كنت أمشي نحو بيت (أدموند) وأنا أعرف في قرارة نفسي أن هذه ستكون آخر مرة أمشي فيها إلى بيته، كنت أحاول أن أستوعب وأحفظ كل ما هو موجود، الكنيسة المهجورة في زاوية الحي، المدرسة الثانوية التي تطل على الشارع الرئيس، الكرسي الخشبي عند محطة الانتظار، بل حتى نباح الكلب الذي يزعجني في كل مرة أمر بجانب المنزل الذي يقطنه، بل حتى سيارة النقل الكبيرة التي يملكها الجار.

كان باب المنزل مفتوحًا، (وأدموند) يطل منه وهو يودع أحد أصحابه، وعندما رآني لوح لي وهو يقول:

- مرحبًا بعبقري الكمبيوتر، الذي أصلح جهازي في لحظات.

ابتسمت في داخلي، وأنا أداعبه قائلاً:

- إن ابن أخي ذو السنوات الخمس يستطيع أن يصلح لك مشكلتك السابقة.

دخلت المنزل مستغربًا من نظافته، وبعد أن أغلق (أدموند) الباب خلفي التفت إلي ولما رأى الدهشة تعلو وجهي قال لي:

- ما رأيك؟ زوجتي (كاثي) سوف تأتي بعد غد، لذا أنا أجهز المنزل لها.

- جميل جدًا.. بالمناسبة لدي أمر أريد أن أحادثك بشأنه.

ارتسمت ملامح الجد على وجهه، وهو يقول:

- تفضل.

- سوف أنتقل إلى منزل آخر.

كنت أتوقع أن يقع من الصدمة، أو أن ينفش شعره، أو أن يصرخ احتجاجًا، ولكنه بمنتهى البرود قال:

- كنت أتوقع ذلك، متى ستغادر.

- غدًا.

مط شفتيه في غير اقتناع، وهو يهز رأسه ويقول:

- ستزورني فيما بعد.. أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

خرجت من الصالة واتجهت نحو غرفتي، لكي أحزم أغراضي، وأستعد للانتقال غدًا.

في الصباح، خرجت من غرفتي، حازمًا حقيبتي، أسحبها خارجًا من الغرفة، ورفعت رأسي أتأمل المنزل للمرة الأخيرة، وأودع ببصري وكياني كل شيء، فلكل جدار قصة، ولكل زاوية حكاية، وأتأمل ما حولي بأسى وأنا أعرف بأني لن أنسى ما حدث لي في أرجاء المنزل، فلقد تركت جزءًا من روحي في هذا المكان.

وعندما وقعت عيناي على (أدموند) كان ينظر إليّ بأسى.. وهو يقول:

- أأنت راحل حقًا؟

- نعم

كنت أخشى من مواجهة كهذه، وأنا الذي لا يحب لحظات الوداع، خرجت من المنزل، ووضعت حقيبتي في سيارة (وليد) الذي كان ينتظرني خارجًا، والتفتّ نحو باب المنزل، و(أدموند) يقف على عتبة الباب، يغالب أنفاسه، ويمسح عينيه بمنديل أخرجه من معطفه، وهو يلوح لي بيده، رفعت رأسي وابتسمت بحزن، بالرغم من كل شيء سأفتقدك أيها العجوز. لوحت له بيدي وأنا أقول بصوت متهدج:

- (وداعًا..)

١١

عيد الفصح



مقولة نيوزيلندية

He mahi kai te taonga

النجاة هي الكنز الأعظم

دخلت القاعة الدراسية متأخرًا، كانت الأستاذة (كرستينا) تتحدث عن إجازة دراسية ما، وأنها فرصة سياحة رائعة، وخصوصًا مع وجود أماكن تستحق الزيارة قريبة من المدينة، وعندما انتهت قالت لي:

- نحن نتحدث عن إجازة عيد الفصح (Easter Break)، والتي ستبدأ في نهاية هذا الأسبوع.

ما أثارني هو... ما هذا العيد؟ وما سبب الاحتفال به؟

لم تستطع (كرستينا) أن تشفي غليلي بإجاباتها، فبالرغم من أن هذه المناسبة تعد مناسبة دينية أساسية في معتقدات المسيحيين، تنافس في أهميتها عيد الميلاد (الكريسمس)[1]، إلا أنها لم تكن تعرف عنها إلا أقل القليل، فهي مثل أكثر نصف سكان هذا البلد، مسيحيون بالاسم، من دون اعتقاد حقيقي، وبدون ممارسة!

حاولت أن أسترجع ما أعرفه عن هذه المناسبة، غير أن ذاكرتي لم تسعفني إلا برواية للمبدع نجيب الكيلاني تحمل اسم (دم لفطير صهيون)، تتكلم عن طقوس احتفال اليهود بهذا العيد، حيث يشترك المسيحيون مع اليهود في هذا العيد، وإن اختلفت الأسباب والممارسات.

(١) عيد ميلاد المسيح (في الرواية المسيحية).

سجلت هذا الاسم (عيد الفصح) في مدونتي لأعود له لاحقًا.

كان اليوم هو (الإثنين) وهو بداية لما يسمى بـ: (الأسبوع المقدس)، حيث ازدانت الشوارع والمجمعات التجارية بالزينات، وانتشرت في المحلات الهدايا المخصصة لهذه المناسبة، كان الرمز المعروف لها، هو البيضة والأرنب! فترمز البيضة إلى العودة للحياة، وأما الأرنب فهو رمز للخصوبة!

انتهى يومي المدرسي بسرعة، فقد كان هناك امتحان نؤديه نراجع فيه ما سبق؛ وغدًا سينضم إلينا طلابٌ جدد، ففي بداية كل أسبوع يستقبل المعهد طلابًا ويودع آخرين. نزلت إلى معمل الحاسب، واختللت مقعدًا أمام أحد الأجهزة، وفتحت محرك بحث شهير، وبدأتُ أُبحر!

(Easter) هو أول يوم (إثنين) بعد أول اكتمال للقمر في أول فصل الربيع، أو أول إثنين بعد ١٢ أبريل، يسبقه (الجمعة العظيمة - Good Friday)، وتتلخص قصة هذا العيد (المقدس)، في أن المسيح -عليه السلام- عندما (قتل وصلب)[1] في الرواية المسيحية، كان ذلك في يوم الجمعة، وعاد بعدها للحياة إذ شُوهِدَ في يوم الإثنين! وبالطبع نحن بوصفنا مسلمين لا نؤمن بأن المسيح -عليه السلام- قتل، بل رفعه الله إليه كما في الآية الكريمة.

---

(١) ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم﴾ (سورة النساء، ١٥٧).

ويختلف المسيحيون أنفسهم في تعليل سبب الاحتفال بهذا العيد، فبعضهم يحتفل به لإحياء ذكرى (صلب) المسيح، وهدفه كان تخليصهم من ذنوبهم، لذلك هم يأكلون تلك الليلة الخبز الجاف مع النبيذ الأحمر، تخليداً لذكراه ولأنها كانت آخر وجبة أكلها (كما يقولون).

بينما يحتفل به الآخرون عرفانًا بعودته إلى الحياة مرة أخرى، بعد أن (قتل وصلب)، حيث شُوهِدَ في يوم الإثنين، وفي الواقع لم أجد أناسًا أكثر اختلافا في دينهم من المسيحيين أنفسهم، وانقساما حول (أصول) دينهم، وكنت أتذكر وأنا أقرأ عن عيدهم واختلافهم حوله ما قاله العالم الفذ (أحمد ديدات) بأن كل مسيحي يعد حالة خاصة في دينه، وأنه كلما حاصرته في زاوية من أساسيات دينهم قال لك: (أنا لا أؤمن بهذا).

كنت منهمكًا في القراءة، عندما أحسست بيد تطرق كتفي من الخلف، التفت لأجد (عذيب) ينظر إليَّ، وهو يقول:

- (كفشتك!)، ماذا تفعل هنا؟

- فقط أتصفح الإنترنت، وأقرأ عن عيدهم هذا!

- وهل تنوي الاحتفال به؟ دعنا نذهب لنأكل شيئًا.

قمت من مقعدي، وخرجت معه، وبينما نحن نعبر أمام مكتب الاستقبال في طريقنا إلى الخارج، فاجأني صوت يقول:

- (محمد)... انتظر لو سمحت.

التفت ناحية الصوت، ووجدت المسؤولة عن السكن (سارا) تشير إليَّ، توجهت نحو مكتبها، وقالت وعيناها تحملان شيئًا قليلاً من الدهشة:

- لقت اتصلت بك امرأة تدعى (هيلاري) عدة مرات هذا اليوم، يبدو أنها ترغب محادثتك وبشدة، فلقد تركت رقم هاتفها لديَّ، تفضل.

وناولتني ورقة صفراء صغيرة خطت عليها رقم الهاتف، أخذت الورقة وشكرتها، وانصرفت.

عندما خرجنا من المعهد، التفت ناحية (عذيب)، لأجده يجاهد لكي يكتم ضحكته، التي لم يستطع أن يحكم سيطرته عليها، فسرعان ما دوت مجلجلة، وقال وهو يغطي فمه بيده:

- أجل ... (ترغب محادثتك وبشدة !)، لست أدري ما هو تأثيرك على هؤلاء السيدات المسنات - ولكني كنت ألمح الغيرة في عينيَّ (سارا)- نحن مسلمون يا محمد، فلابد أن تعدل بين نسائك!

لم أتمالك نفسي من الضحك، واستمر (عذيب) يسخر من الموقف، ويرمي التعليقات اللاذعة، حتى وصلنا إلى مطعم متنقل في عربة صغيرة، في ساحة واسعة بوسط المدينة، يديرها (جون

وعلي) اللبنانيان، كان هناك العديد من الأزواج ينتظرون أن يجهز (السوفلاكي[١]) الخاص بهم، والذي يبرع هذان الاثنان في تحضيره؛ وعندما رآني (جون) وقد سبق أن أتيت هنا قال وبالعربية:

- (يا هلا بالشباب، كيفكون اليوم؟)

لم يكن (عذيب) يفقه حرفًا واحدًا مما قاله، وكذلك الأشخاص الذين يقفون في انتظار طلبهم، وإن كانوا يوزعون نظراتهم بيننا، وخاصة عندما قلت:

- (تمام، ماشي الحال... وين علي اليوم؟)

- (رايح مشوار... شو على بالكون تتغدوا اليوم؟)

لم يكن هناك العديد من الخيارات، فالسوفلاكي هو الوجبة الأساسية لديهما، وإن كانا يسميانه (كباب)، فعربتهما الصغيرة بلونيها الأحمر والأصفر تحمل اسم (راب كباب)، لذا حمل هذا الاسم جميع الأطباق لديهما.

أخذنا طلبنا، وتوجهنا إلى أحد الكراسي الأسمنتية المنتشرة تحت الأشجار المتفرقة، وجلسنا نستظل تحتها، و(عذيب) يقول:

- لدي اعتراف لك يا محمد.

---

(١) وجبة تشبه (الشاورما بالصاج).

- تفضل.. افتح أبواب صدرك، وقل ما عندك، ولا تخش شيئًا يا صديقي.

- معذرة... ولكني أكرهك.

(أكرهك !!)... هزتني هذه الكلمة، والمصيبة أنه قالها ببرود متناه، وعندما سألته عن السبب، قال لي:

- أنا أكرهك، لأنك عندما تتحدث العربية مع أي شخص، لا تقول لي بعدها ما هو فحوى حديثكما، وإنِّي أحمد الله أن صاحبك (طلال) أنهى دراسته في المعهد، ولم تتعرف على غيره من العرب الذين تكاثروا في المعهد.

أغلقت علبة (الكولا)، وأنا أهم بأن أرميه بها، وقلت له ضاحكًا:

- إنه لسبب وجيه للكره، كما أن كلامك هذا سبب وجيه لكي أرميك بهذه العلبة.

أخذ يضحك ونحن نتبادل التعليقات، وعندما أنهينا غداءنا أخذنا نتجول في الساحة الواسعة، عندما بدأت أجراس كنيسة قريبة في الدقّ، قال لي عذيب:

- مادمت تريد أن تعرف عن عيدهم هذا، دعنا ندخل هذه الكنيسة.. ونسأل هناك؟

راقت لي الفكرة، وخصوصًا أني أحمل معي الكاميرا، فسيكون عذرًا لا بأس به للتصوير داخلها، توجهنا نحو مدخل الكنيسة كانت هناك لوحة قماشية كبيرة مكتوب عليها باللون الأحمر (الأحد القادم.. ليس أحدًا عاديًا.. الساعة ٧ مساءً).

اقتربنا من المدخل وأنا أقدم قدمي وأؤخر الأخرى، كنت مترددًا حيال الدخول إلى هذا المكان، فلقد كنت أخشى على نفسي وعلى عذيب، وكذلك كنت أخشى من أن يُختم لي في مكان كهذا.

رحمه الله.. لقد مات في كينسة..

(ياالله حسن الخاتمة)

يالها من عبارة.. جعلتني أعود أدراجي، وعندها أمسك (عذيب) بيدي، وهو يقول:

- أين أنت ذاهب؟ دعنا ندخل.. هل هذه المرة الأولى لك؟

- نعم.. فلم يسبق لي أن دخلت أي دار للعبادة لغير المسلمين.

- أتفهم مشاعرك.. ولكن تذكر أن الصحابة قد دخلوا الكنائس من قبل، بل لقد صلى عمر بن الخطاب عند كنيسة في بيت المقدس.

كانت حجته القوية هي التي جعلتني أعيد تقييم موقفي، وأعود لمواجهة المدخل.

الشمس تبعث في الأرجاء الدفء، ويمتد نورها إلى الداخل، وعندما تقدمت نحو المدخل، لفحني هواء بارد محمل بروائح غريبة، بعثت في داخلي قشعريرة، وجعلت نبضات قلبي ترتفع، وجف حلقي، وأنا أحاول السيطرة على مستوى التنفس لديَّ، فلا أريد أن أظهر بمظهر الخائف، خصوصًا في هذا المكان، نفثت الهواء من أعماق رئتي محاولاً أن أطرد كل ما بداخلي من توتر، وأنا أخطو الخطوة الأولى داخل المدخل العتيق، كان هناك ثلاثة قساوسة يستقبلون الزوار ويوجهونهم، ولما رأوا ملامحنا غير (المسيحية)، التفتوا جميعًا نحونا، وبحماسة يرحبون بنا، وعندما رأوني أحمل الكاميرا، قال لي أحدهم:

- معذرة يا سيدي، لكن إذا أردت التصوير، فلابد أن تدفع (٣) دولارات!

(٣) دولارات... ولكنيسة! جعلني هذا أقول له:

- أوه.. حقًا... لكني لا أنوي التصوير.

كانت الكنيسة عبارة عن صالة واسعة، مقسمة إلى عدة أقسام، ازدان سقفها بزخارف من العهد الفيكتوري، وعشقت نوافذها برسومات من الثقافة المسيحية، وكل هذا يعتمد على أعمدة رخامية بنقوش جميلة، وعند دخولك تقابلك مقاعد خشبية متصلة ببعضها، تمتد في صفوف إلى الأمام، تنتهي عند منصة

مرتفعة، وضع عليها صليب ضخم، ويمين المدخل توجد مكتبة صغيرة، تبيع الكتب والتحف ريعها للكنيسة، وعلى الجدران الداخلية تنتشر التماثيل والصور المعلقة، وفي الطابق العلوي المطل على بهو الكنيسة، كان هناك بيانو ضخم، جلس عليه عازف يتدرب على مقطوعة ما.

بدأت أنقل بصري بين النقوش العجيبة، متأملاً الرسوم والزخرفات المنتشرة في كل مكان، مستمتعًا بالهدوء الجميل، لا يقطعه سوى الأنغام المنبعثة من البيانو في الدور العلوي، الذي سرعان ما انصرف صاحبه، وترك لنا الهدوء وحده نستمتع به.

نقلت قدميّ بهدوء متقدمًا نحو المنصة المرتفعة، وأنا أنقل بصري في وجوه الجالسين، فهذا رجلٌ كبير السن يدعو بتضرع مواجهًا الصليب الكبير، وامرأةٌ أحاطت وجهها بكفيها والدموع تنساب من عينيها بغزارة، وطفلة مع والديها تخفض رأسها بتبجيل أمام الصليب وتؤدي علامة الثالوث المقدس! وآخر خرج للتوّ من غرفة جانبية بعد أن اعترف بكافة ذنوبه (وغفرها) له القس المناوب!

لم أستطع تحمل هذه المناظر، التي تتنافى مع أبسط القواعد المنطقية التي نشأت عليها، وآمنت بها، فآثرت السلامة فقلت (لعذيب):

- لا أستطيع أن أتحمل هذه المناظر، دعنا نخرج من هنا.

- وأنا أيضًا...

عندما التفت لكي نعود أدراجنا نحو الباب، أمسك عذيب بيدي وهو يقول:

- لنلق نظرة على هذا التمثال.

كان يُشير إلى تمثال لرجل مستلق على ظهره، ممسك بصليب ضخم يمتد من ذقنه إلى أطراف قدميه، كتب تحته معلومات عنه، فلقد كان أول قس عاش في هذه المدينة.

التفت (عذيب) نحوي، وهو يقول بعينين جذلتين:

- ما رأيك.. سوف أصرخ (الله أكبر).

أمسكت بيده أجره نحو الباب، وأقول له:

- سوف تتسبب في مقتلنا، خصوصًا مع كل نظرات الاستنكار التي كنّا نلاقيها من رواد الكنيسة.

- ما أروعها من ميتة... (شهيدُ الكنيسة).

وأطلق ضحكة مدوية، شق بها هدوء المكان، وجعلت كل من في الكنيسة يلتفت نحونا ويحدجنا بنظرات نارية، جعلتني أمسك بيده مرة أخرى، وأقول:

- يا مجنون... (اركد)، على الأقل.. حاول أن تعطي انطباعا حسنا عنّا كمسلمين، وكيف أننا نحترم أماكن عبادتهم.

عندما خرجت من الكنيسة، لفحني هواء منعش، ورائحة عطرية زكية، مصدرها الأزهار المنتشرة في الساحة، كانت الشمس تختبئ خلف غيوم بيضاء تسبح في محيط السماء الأزرق، والطيور تحلق في كل مكان، وتغني بصوت أخاذ، لم أتمالك نفسي، فطفرت الدموع من عينيَّ، وأنا أهتف في داخلي وأصرخ بكل جوارحي..

- عذرًا يا رب.

١٢

عبدة الشيطان



مقولة نيوزيلندية

Ka to he ra, ka rere he ra

بشروق الشمس، يبدأ يوم جديد

توقفت عن عد الأيام منذ مدة، فقد أضحت سواسية بالنسبة لي، وصار لي روتين يومي أتبعه، يبدأ مع الفجر في تمام السادسة صباحًا، وينتهي بقطع اتصالي بالإنترنت عندما تقارب الساعة الثانية عشرة ليلاً.

كانت أيامي تتكرر بشكل ممل، فأخرج من المعهد في تمام الثانية، وأتناول طعام الغداء مع مجموعة من الشباب العرب الذين بدأوا يتكاثرون في المعهد، أو في أحيان كثيرة أفضل أن أكون وحيدًا، أليست الوحدة خيراً من جليس السوء؟!

وتعلمت الكثير من العادات السيئة،

فمن التسكع في الشوارع،

والتأمل في موروثات الشعب الثقافية!

إلى إهدار المال على الطاولات الخضراء !!

طاولات البلياردو[1] بالطبع!

اليوم هو... في الحقيقة لا أدري، فالأيام فقدت نكهتها، فلم يعد يوم السبت كما كان، والأربعاء.. نعم الأربعاء، صار يومًا عاديًا، لا تميزه عن بقية الأيام بشيء، فلم تعد تفرق بين خميس وثلاثاء!،

---

(١) البلياردو: لعبة تقام على طالة مستطيلة الشكل، يتنافس اللاعبون في إدخال الكرات الصغيرة في أهداف محددة، قيمة الجولة (١) دولار.

بل إن يوم الجمعة لم أعد أشعر بهيبته، ولولا صلاة الجمعة لنسيت ترتيب أيام الأسبوع.

خرجت من المعهد متوجهًا نحو مكاني المعهود في أحد المقاهي التي تقدم القهوة والشاي، حيث أحب أن أمضي جزءًا من وقتي هناك، أتصفح الإنترنت، وأتأمل العابرين، خصوصًا أن هذا المقهى مطل على شارع للمشاة فقط.

حملت كأس (الموكا)[1] وجلست على الكرسي الوثير المفضل لي، المطل على الواجهة الزجاجية، وأخرجت (كمبيوتري) المحمول، وبدأت أتصفح مواقعي المفضلة.

إن أجمل ما يميز هذا المكان، هو الهدوء الشديد، فالأغلبية منغمسون في تصفح الصحف اليومية، أو قراءة الكتب، أو منهمكون في حديث هامس.

شق سكون المكان صراخ:

- لقد قلت لك أن تكفي عن فعل هذا معي أيتها (...).

انتزعني هذا الصراخ القادم من الخارج من حالة الهدوء التي أعيشها، وعندما رفعت بصري نحو مصدر الصوت، وقعت عيناي على فتاتين تتبادلان التهم والسباب، كانت الأولى في لباس مدرسي،

(١) قهوة سوداء ممزوجة بالشكولاته مع الحليب المبخر.

سترة بيضاء، معطف أزرق، تنورة مقلمة بالأزرق والأبيض، وتحمل حقيبتها خلفها، وتصرخ في وجه الأخرى بأن تكف عن مضايقتها، أما الثانية فكانت تغرق في السواد، فمن شعرها الأسود الداكن، مرورًا بعينيها السوداوين التي زادهما عمقًا الكحل الأسود العريض، بل حتى شفتيها لم تسلما من هذا اللون، فقد استخدمت لونًا قريبًا منه، وأما ملابسها فكانت تغرق في ظلام اللون الأسود، وتتدلى من عنقها قلادة كبيرة فضيّة اللون، وعلقت في أنفها حلقة فضية!

هرع بعض الأشخاص لفك النزاع الدائر بين الفتاتين، الذي امتد للتعدي باليدين، وشد الشعر، وخدش الوجه، بالإضافة إلى الشتائم التي تتنافسان في إطلاقها.

انفض النزاع (الممتع) لبعض الجالسين حولي!! فلقد كنت أسمع عبارات التهكم والسخرية تنصب على هاتين الفتاتين، وطريقتهما في الخصام، الذي أضاف إلى حصيلتي اللغوية العديد من المفردات خصوصًا نادرة الاستعمال منها!

ذهبت الفتاة ذات اللباس المدرسيّ إلى حيث تقع (محطة الحافلات) التي لم تكن بعيدة. أما الأخرى فقد جلست على أحد الكراسي المتناثرة في الخارج، وأخرجت علبة (سجائر)! وبدأت تدخن بشراهة.

إن رؤية رجل يدخن أمر مزعج جدًا، ولكن رؤية امرأة تدخن أمر يبعث على الاشمئزاز، فالمرأة التي هي موطن الرقة والحنان،

تنسلخ من كل مفاهيم الأنوثة عندما تنفث هذا السم، بل وتفقد كل مقومات الجمال حتى ولو كانت من أجمل الجميلات.

فالتدخين يهوي بالإنسان، فيفقد الرجل رجولته، ويسلب من المرأة أنوثتها.

لم أتحمل هذا المنظر خصوصًا عندما جلست الفتاة في الخارج، أمام النافذة التي يطل عليها مقعدي، وما زاد المنظر بشاعة اجتماع مجموعة من المراهقين في نفس العمر حولها، يلبسون قريبًا من لبسها الأسود، وجميعهم ينفثون هذا السم الزعاف.

لذا نهضت من مقعدي حاملاً حقيبتي، وخرجت من المقهى، وعندما مررت بقربهم، التفتوا جميعًا ينظرون إليّ بتقدير!

لم أعرف ما سر هذه النظرات التي وجهها لي هؤلاء المراهقون، ولا ماهية الهمسات التي كانوا يتبادلونها.

أخذت أمشي في الشارع، أتصفح وجوه الناس، وأمتع بصري بجمال الطبيعة، حتى وصلت إلى وسط المدينة، عندما وقعت عيناي عليه!

وجهٌ شاحبٌ للغاية، بدا أنه لم يحلق ذقنه منذ مدة، غارت عيناه وأصبحت كتجويف فارغ في وجهه المكتئب، كان هائمًا في عالمه، حتى عندما التقت أعيننا لم يتعرف عليّ، رغم أن لقاءنا

السابق لم يمض عليه أكثر من خمسة أسابيع، وتعجبت أنه مازال موجودًا في المدينة، فلقد اعتقدت أنه سافر منذ مدة، ومددت يدي إليه وقلت:

- (طلال)!... السلام عليكم.

حدق في عينيَّ طويلاً، ثم نظر إلى يدي الممدودة نحوه كأنما هو في حيرة بشأنها، وبعد مدة مد يده نحوي مصافحًا وهو يقول بصوت خافت بالكاد سمعته:

- وعليكم السلام.

- ما الذي جرى لك؟

- ماذا؟... أنا؟... أنا بخير، لكني متعب قليلاً.

- تبدو كالشبح بالنسبة لي، لم أكد أتعرف عليك.

اغتصب ابتسامة من أعماقه، جاهد كثيرًا لتخرج على شفتيه، غير أنها لم تستجب إلا بحركة زادت وجهه بؤسًا.

حاول أن يغير دفة الحديث بقوله:

- ما هذا اللبس الذي تلبسه؟ أسود في أسود؟

لم أنتبه لهذا من البداية، بالفعل.. كان لباسي في تلك اللحظة هو الأسود، ومع شعري الأسود، وإطار النظارة الأسود.. عرفت سر

النظرات التي وجِهت لي من قبل تلك المجموعة الغريبة. واستمر (طلال) يقول:

- (لا تكون بس انضممت لمجموعة (عبدة الشيطان)، تراهم منتشرين هالأيام).

واختتم كلامه بضحكة سرعان ما تحولت إلى اختناق، بدأ يسعل بعدها بصوت أنين، أخرج منديلاً مبقعًا باللون الأحمر من جيبه، وبدأ يمسح به الدم المتناثر على شفتيه، وعندما حاولت أن أمسك يده لأجلسه، أشار إليّ وقال:

- لا بأس... شكرًا لك، لابد أن أذهب الآن.

وضعت يدي على كتفه وقلت له بحزن:

- (طلال... لازم تروح للمستشفى).

أخرج من حقيبته، كيسا أبيض اللون ممتلئًا بالأدوية، وأشار إليه وهو يعجز عن الكلام، حاولت أن أسأله عن مرضه، غير أنه ذهب بخطوات مرتعشة وهو يشير إليَّ أن أدعه وشأنه.

تبعته بعيني حتى اختفى عن ناظري وغاب في الأفق، وأنا أغالب نفسي في اللحاق به ومساعدته، غير أني احترمت رغبته في البقاء وحيدًا.

أثر فيَّ موقف (طلال)، فهو وحيد في أرض غريبة، بعيد عن

أهله ووطنه، غريب في عالم مكتظ بالبشر، كنت أعرف أنه يحتاج إلى من يواسيه، ولكنه رفض مصاحبتي له.

تركت قدميّ تقودانني كيفما اتفق، كان عقلي كصفحة بيضاء، كنت مهمومًا من لا شيء، أفكر في لا شيء، أعاني من فراغ كبير في داخلي، وفي أعماق أعماقي عرفت أني أعاني من الوحدة، والحنين، و.... الغربة.

أفقت من تأملاتي وجدت نفسي جالسًا على كرسي خشبي مواجهًا لنهر آفون، في مكان خالٍ من البشر، أخذت أتأمل في روعة المكان المحيط بي، كانت مياه النهر زرقاء صافية، وبعض الطيور تسبح بهدوء، وعلى ضفتي النهر امتد بساط أخضر إلى ما لا نهاية، وتناثرت أشجار باسقة ملونة فتلك برتقالية اللون، والأخرى صفراء، وتلك حمراء، وخضراء، لقد درست في المدرسة بأن الأشجار في فصل الخريف تتلون، وبرهن أستاذي على صحة هذه المعلومات بالصور، ومضت السنون، وأنا أراها في الصور فقط...

حتى رأيتها الآن...

حقيقة...

كنت أشعر بأن عينيّ تكتسب وتتعرف على درجات ألوان جديدة، فبعد أن أصبحتُ خبيرة في درجات اللون البني، والأصفر.. بدأت تتعرف على أن هناك ألوانًا جديدة في الحياة، فهناك الأخضر بتدرجاته، والأحمر، والبرتقالي، والأزرق!

لم أدر كم من الوقت أمضيت، فالوقت يفقد قيمته وأنت تغرق في جمال كهذا، وتفقد الكلمات معانيها أمام هذه اللوحة التي أبدع صانعها وأتقن تكوينها.

تناهى إلى سمعي صوت أنين مكتوم ضعيف، حاولت أن أحدد مكانه فلم أستطع، نهضت من مكاني محاولاً أن أتتبعه، وعندما حددته توجهت ناحيته بحذر، فلم أكن أعرف ما سأواجه، كان الصوت يصدر من خلف مجموعة من الأشجار، التفتّ حولها محاولاً أن لا أصدر أي صوت، غير أن تحطم أوراق الشجر تحت حذائي كان كصوت ألف قنبلة في هذا الهدوء.

توقف الأنين، وإن كنت أكملت التفاتتي حول الأشجار، عندما وقعت عيناي عليه، شابٌ متكور على نفسه، مسندًا ظهره إلى إحدى الأشجار، دافنًا رأسه بين ركبتيه، محلقًا يديه عليها، لما أحس بوجودي رفع عينيه الدامعتين ونظر إليّ من بين خصلات شعره المتناثرة على جبينه، فقلت له:

- هل أنت بخير؟ هل أستطيع مساعدتك بأي شيء؟

نظرت إلى عينيه التي كنت أقرأ فيهما الألم الشديد، والضعف مع العجز.. والشعور بالذنب، كانت عيناه تلمعان والدمع يخط على وجهه، وإن كان يحاول أن يخفي تفاصيل ألمه بتغطية وجهه، وبمسح دموعه بكمه، ويقول (باللغة العربية):

- شكرًا لك يا (محمد)، لا أريد أن أتكلم الآن.

لم أتفاجأ من معرفته لاسمي، فلقد عرفت عندما رفع رأسه لي بأنه لم يكن سوى (طلال) الذي التقيته قبل سويعات، وسط المدينة، كنت أشعر بأنه يحتاج إلى أكثر من ذلك، يحتاج إلى من يكون بجانبه، يحتاج إلى صديق.

وضعت حقيبتي جانبًا، وجلست على الأرض بجانبه، وأسندت ظهري إلى الطرف الآخر من الشجرة الكبيرة، لم أكن أعرف ما يجب أن أقوله، أو بماذا أبدأ لكي أخفف عنه ما يشعر به، غير أني فضلت الجلوس صامتًا، وأنتظر.

ظللنا على هذه الحال مدة طويلة، وبدأت الشمس تلملم أطرافها مودعة، والظلام يبسط ظلاله حولنا معلنًا قدومه، كدت أقترح على (طلال) أن نخرج من هنا، فلست أدري أين نحن، ولا كيف وصلت إلى هنا، غير أن تنهيدة طويلة أصدرها من أعماقه أسكتتني، وقال لي بصوت ضعيف لا أكاد أسمعه:

- أتعرف يا (محمد)، هذه الحياة عجيبة... فبالرغم من كل مقومات الحياة السعيدة المتوفرة لديّ، التي جعلتني أظن أني أسعد أهلها،... لكني لم أكن كذلك؟

لقد جربت كل شيء... كل شيء، في سبيل الحصول على حياة سعيدة، لكني لم أجد لها سبيلاً، أعرف أنك قد تقول: إن السعادة

في الدين والرجوع إلى الله، وأنا أتفق مع هذا الكلام، لكني لم أعرف ذلك إلا بعد فوات الأوان!

سكت (طلال) عن الحديث، كانت الدموع قد جفت على وجنتيه، وبدأ يتنفس بصورة عميقة، وهو يشخص ببصره إلى السماء متذكرًا، وبدا أن الذكريات تمزقه كل ممزق. حاولت أن أتكلم، محاولاً مواساته، لكني كبحت جماح نفسي، فهو في حاجة إلى الكلام أكثر من السماع.

فوجئت به ينهض بصعوبة، وهو يسعل بين الفينة والأخرى، وقال لي:

- تعال معي، أريد أن أجلس في مكان أفضل... سأذهب إلى المسجد.

عاونته على النهوض وسرنا ببطء، فالضعيف أمير الركب، وهو يرشدني إلى مكان المسجد الذي لم يكن بعيدًا عن مكاننا، كانت الشمس على وشك الغروب، وعندما دخلنا المسجد كان الإمام قد شرع في الصلاة.

بعد أن قُضيت الصلاة، التفتّ لأجد (أبوحاتم) و(فاضل) والعديد من الشباب الذين التقيتهم في بيت (أبوحاتم)، بالإضافة إلى العديد من الجالية المسلمة، بدا وكأنهم كانوا في اجتماع ما قبل الصلاة.

شعرت بيد تمسك يدي، و(طلال) يهمس في أذني:

- أرجوك اذهب الآن، لا أريدهم أن يروك معي، فأنا (شبهة).. فضلاً على أني أريد أن أبقى هنا وحدي.

والتفت نحوي ينظر إلى عينيَّ وصوته يتهدج قائلاً:

- أشكرك يا صديقي... على كل ما فعلته معي.

حاولت أن أرد، غير أنه أسكتني بيده وهو يشير لي بأن أتركه الآن، وعندما قمت والتفتّ لأخرج مع الباب، وجدت (أبوحاتم) يتحدث مع رجل لم أره من قبل، وأشار لي عندما رآني وهو يقول:

- (محمد)... لا تذهب رجاءً... أريد أن أحادثك في أمر مهم.

أخذت أتجول في المركز الإسلامي، وأتفرج على صور للمساجد الثلاثة (مكة والمدينة والقدس) معلقة على جدران المركز، وأقرأ بعض الإعلانات عن البرامج التي يشرف المركز على تنظيمها، فمن مخيم للشباب، وآخر للفتيات، ودعوة غير المسلمين لزيارة المركز في (اليوم المفتوح) إلى إقامة المناسبات والشعائر الدينية، كالجمعة والعيدين، بل حتى الصلاة على الجنائز وترتيبات دفنها.

شعرت بيد توضع على كتفي، وصاحبها يقول:

- أتنوي مشاركتنا في الأنشطة؟

ابتسمت نحو سكرتير المركز وقلت له:

- لا مانع لدي، بل أتشرف بفعل ذلك.

- ممتاز.. إذًا نريدك أن تشارك معنا في الإعداد لبرنامج (اليوم المفتوح)، سنقيمه الأحد القادم في المسجد - بإذن الله.

ولم يمهلني لأرد.. فالتفت وقال:

- يا (أبوحاتم)، الأخ يريد أن يشاركنا في فعاليات (اليوم المفتوح).

أقبل (أبو حاتم) ناحيتنا مبتسمًا، ويقول:

- هذا بالضبط ما كنت أريد أن أقوله، فيبدو أنك مليء بالأفكار، لنجلس في المكتب، فهناك نقاط عدة أريد مناقشتها مع سكرتير المركز.

دخلنا المكتب، وغرق الاثنان في نقاش حول البرنامج المقترح، وكيفية استقبال الزوار، ومتى سيكون موعد المحاضرة التي سيلقيها دكتور في إحدى الجامعات النيوزيلندية.

وفي لحظة صمت، سألت:

- من هم الزوار الذين تتوقعون قدومهم في ذاك اليوم؟

- الجالية المسلمة بالطبع، وكذلك غير المسلمين لنعرّفهم بأنشطتنا، ونجعلهم يدخلون المركز ويتجولون فيه.

فقلت وقد أخذتني الحماسة:

- جميل جدًا، وكيف ستوجهون الدعوات؟

- سنعلن عنه بعد صلاة الجمعة، وسيتم تعليق إعلان على لوحة الإعلانات داخل المسجد وربما لوحة قماشية خارجه، لماذا تسأل هل لديك فكرة ما؟

- ربما.. دعني أفكر فيها، وعندما تتضح في ذهني سأخبر (أبوحاتم) بها.

خرجت من المسجد مع (أبوحاتم) و(فاضل) عندما سمعنا من خلفنا صوتاً يقول:

- (أبو حاتم) هل نسيت موعدنا؟

التفت أبو حاتم نحو الصوت، ومن ثم عاد نحونا، وقال لنا:

- آسف ولكنْ لدي موعد إلى قرابة العشاء، (فاضل) أرجوك اذهب أنت و(محمد) إلى (كاونت داون[1]) واشتريا ما نحتاج إليه للعشاء، فالإخوان سيأتون اليوم.

ركبت معه في سيارته الصغيرة، وتوجهنا نحو المحل المقصود، وفي الطريق كان (فاضل) يتحدث عن بلده، وعن قسوة الحياة في هذه المدينة، وعندما أراد إيقاف السيارة في المواقف، التفتّ نحوه وأنا أتفحصه بنظراتي وقلت له:

(١) (كاونت داون): محل للتموين الغذائي يعمل طوال اليوم (٢٤ ساعة).

- هل ستدخل المحل بهذه الملابس؟

كان (فاضل) حينها يلبس ثوبًا خليجيًا، ويعتمر طاقية مزخرفة.

- وما المانع؟ (حوّل ولا تصير موسوس)

نزلنا من السيارة، وبدأت ألتفت حولنا، كانت المواقف شبه خالية من السيارات، وبدأنا نقطع المسارات الخالية في طريقنا إلى بوابة المحل الذي يفتح طوال اليوم، عندها تناهى إلى سمعي، صوت صرير سيارة مسرعة، وصوت أغانٍ تصم الآذان، اقتربت السيارة منّا، كان فيها ثلاثة شبان وفتاتان، يلبسون الأسود!

- (هيّ... أنت، ماذا تفعلون في بلدنا)

بلسان ثقيل، بفعل المسكر والمخدر الذي يجري في دمه، صاح بنا أحدهم.

قال لي (فاضل) بحزم:

- (لا ترد عليهم، ما يقدرون يلمسونك!)

وأشار بطرفه إلى رجليّ أمن يقفان عند مدخل المحل التجاري الكبير، الذي كنّا متجهين نحوه. وبالفعل توارت السيارة عن الأنظار بعد أن لمح ركابها رجليّ الأمن، وخصوصًا عندما رفع أحدهما جهازه اللاسلكي قرب فمه وبدأ يتحدث من خلاله.

دخلنا المحل الكبير (كاونت داون)، وبدأنا في التسوق، توجه (فاضل) إلى أحد الأرفف، بينما بدأت أتمشى في المكان، كان المحل كبيرًا لدرجة أنك تحتاج إلى قرابة الساعة لكي تلفه كاملاً، والعجيب أنه كان شبه خال، مع أن الوقت لا يزال مبكرًا، فكانت ساعتي تقترب من الثامنة عندما اقتربنا من طاولات المحاسبة، توقف (فاضل) أمام ركن الحلويات وقال لي وهو يمد لي بـ (حلاوة مصاص!):

- اعذرني يا (محمد)، فعندما أدخل محلاً كهذا في بلدي فإني تعودت أن أعود إلى إخوتي الصغار بحلاوة كهذه، ومنذ أتيت إلى هنا، لا أتمالك نفسي من شراء هذه الحلاوة لي ولمن معي، أرجو أن تقبلها.

- لا بأس... مادمت تعدني في مقام (إخوتك الصغار).

ركبنا السيارة وانطلقنا، وكلانا وضع في فمه (الحلاوة المصاص). وعندما التفت إلى (فاضل) لم أملك نفسي من الضحك، وأنا أقول:

- (شكلنا رهيب، ودّك يرجعون السكارى الي قبل شوي، ويشوفون أشكالنا بهالحلاوة).

ضحك (فاضل) وهو يقول بلهجته الرائعة:

- (أقول سيييير منييّ)، بالمناسبة هل تريد رؤية أماكن تجمع مثل هؤلاء!

- ماذا، تقصد أماكن سهرهم في البارات!؟

- لأ... هؤلاء مجموعة يقلدون في حركاتهم جماعة (عبدة الشيطان)، ويسمعون نفس الموسيقى التي تشتهر بها تلك الطائفة (موسيقى البلاك ميتال)، من حسن حظك أن اليوم هو (١٣) في الشهر، هل تريد بعض المتعة!

- (١٣)!؟.. متعة ! أتقصد أنهم يجتمعون في هذا اليوم؟

- بالطبع، لعلك لاحظت تكاثر وجودهم في هذا اليوم، في وسط المدينة بالذات، يعلنون فيه عن وجودهم، وطريقة لإثبات ولاء صغارهم بالتجول بزيهم داخل المدينة دون خوف من الناس.

- وهل تعرف أين يجتمعون؟

- سنجرب، أذكر أني قرأت أنهم يجتمعون عند المقابر الكبيرة، ولدينا مقابر عدة في هذه المدينة، ولكني أعرف مقبرة قريبة من هنا، وأعتقد أننا ربما نكون محظوظين! ما رأيك؟

- (محظوظين!)

يالها من طريقة في التعبير، أخذت أفكر في عرض (فاضل) المغري، فهي قد تكون فرصة نادرة لرؤية طقوسهم التي تكون غالبًا

مخفية عن أعين الناس، وبما أن هذا الشاب الجالس بجانبي يبدو خبيرًا بطرقهم في هذا البلد، فلم أتمالك نفسي من القول:

- لا بأس.. لنذهب.

انعطف (فاضل) بالسيارة، نحو أحد الطرق الفرعية المظلمة، وسرنا ندخل في طريق ونخرج من آخر إلى أن وصلنا منطقة خالية من البشر وكل دلائل الحياة، وبالرغم من قربها من وسط المدينة إلا أنها كانت مقفرة بشكل غريب!

دخلنا إلى شارع مظلم وزاد من ظلمته إطفاء (فاضل) نور السيارة، فلم يبق لنا سوى نور ضئيل يتسلل باستحياء من القمر الذي يُحجب بالسحب تارة ويعود ليضيء المكان تارة أخرى، التفتّ نحوه وقلت:

- لماذا أطفأت نور السيارة؟

همس لي:

- (اششش).. هل ترى تلك السيارات الواقفة، أعتقد أنها تخصهم.

وأشار إلى سيارات بعيدة، بجانب مبنى مهجور، مطل على مقبرة كبيرة، كنت ألمح القبور والأنصبة والصلبان التي وضعت عليها.

تقدم بالسيارة إلى أن بدأنا نتعرف على نوع السيارات، وتوقف جانبًا، مختبئًا خلف إحدى الأشجار، بحيث تمنحنا فرصة النظر والمراقبة دون أن يعرف أن بداخل السيارة أحدًا، أطفأ المحرك، وهمس بأن نبقى في السيارة نراقب فقط، ففي النزول خطر، فلا ندري ما يفعله هؤلاء بمن يمسكونهم، خصوصًا أن مجموعة من (عبدة الشيطان) يشربون دم الإنسان!

جلسنا في السيارة، والهدوء والظلام يلفان المكان الميت، فليس هناك أي شيء يدل على الحياة، وبعد نصف ساعة، تململت في مقعدي وقلت لفاضل:

- لقد تأخرنا على الشباب، ما رأيك أن...

قاطعني بإيماءة من يده، ويشير إلى الأمام، وعندما التفتّ وجدت عددًا من السيارات الفارهة، عرفت منها (بورش، فيراري) تقف جانبًا بجانب السيارات الأخرى التي تنافسها في الغلاء والرفاهية، فهذه الجماعة تسعى لضم أبناء الأغنياء وأصحاب المراكز الكبرى.

نزل من السيارات عدد من الشباب ذكورًا وإناثًا، والموسيقى التي تصدر من السيارات تصم الآذان، فـ (البلاك ميتال) تعد من أصخب أنواع الموسيقى وأكثرها نشازًا، وفيها العديد من الصراخ والقسوة... واليأس!

أُطفئت أنوار السيارات، وانفتح باب المبنى المهجور، وابتلع كل المراهقين، وبقي اثنان خارجًا للمراقبة، وبعد مدة من الوقت دخل الجميع. انتظرنا لمدة عندما التفت لي (فاضل) وقال:

- يكفي إثارة لهذا اليوم، فوراءنا أناس جوعى في انتظار عشائهم.

- وهو كذلك، (وش رايك نمر بجانب السيارات والمبنى!).

نظر إلي (فاضل)، وهز رأسه وهو يدير محرك سيارته، ويغادر موقعنا ويتقدم بهدوء أي سيارة عادية تمشي مسالمة في طريقها. كانت الموسيقى الصاخبة تنبعث من المبنى، وأصوات صراخ و(هسترة) تنبعث من الداخل، وأما السيارات فكانت تعج برسومات عجيبة، كصليب النازية، ونجمة خماسية داخل دائرة، ويد مرسومة مرفوع فيها فقط (الإبهام والسبابة والخنصر)، واحتل رقم (٦٦٦)[١] الزجاجة الخلفية لإحدى السيارات، وكتب تحته (أفضل صديق عرفته البشرية منذ القدم!).

وعندما حاذينا الباب، ضغطت على مسجل السيارة، حيث كان هناك شريط قرآن للشيخ سعود الشريم، الذي صدح صوته مجلجلا في المكان، بعد أن رفعت صوت المسجل، وبعدها انفتح باب المبنى، وأطل وجه لطخه صاحبه بألوان غريبة، ونظر نحونا في غضب، وكان (فاضل) لحظتها يضغط بكل قوة على دواسة الوقود،

(١) (٦٦٦): رقم الشيطان في عقيدة (عبدة الشيطان).

والسيارة الصغيرة تزأر بكل قوتها منطلقة نحو الأمام، وفي المرآة الخلفية، لمحنا صاحب الوجه يشير بإصبعه بعلامة سب مقذعة!

واصلنا المسير بسرعة (وفاضل) يدخل في شارع ويخرج من الآخر، وكنا نغرق في صمت، ونختلس النظر بين فينة وأخرى إلى المرآة الخلفية، إلى أن وصلنا إلى بيت (أبوحاتم).

نزلنا من السيارة التي حرص (فاضل) على إخفائها جيداً، وهو يقول ضاحكًا:

- حسبي الله عليك، كدت تفضحنا، وتجعل من دمائنا شرابًا لهم.

دخلنا المنزل، وتناهى إلى سمعي صوت (وليد) يصلي العشاء ببعض الشباب، وعندما اصطففنا معهم، كان يتلو بصوته العذب:

(الحمد لله رب العالمين،

الرحمن الرحيم،

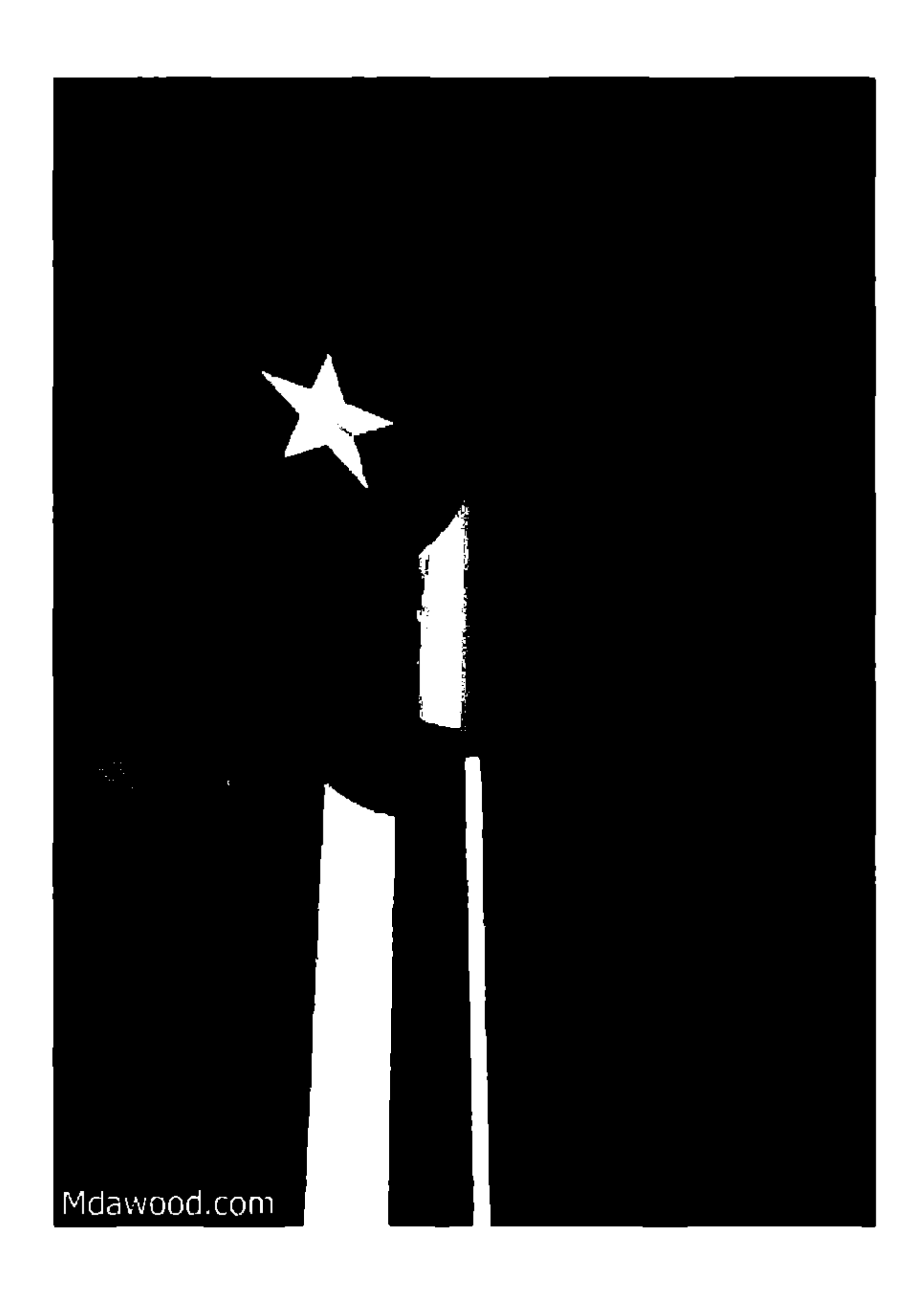
مالك يوم الدين،

إياك نعبد وإياك نستعين،

اهدنا الصراط المستقيم...).

١٣

الجمعة الأخيرة



مقولة نيوزيلندية

Waiho ma te tangata e mihi

دع غيرك يتحدث عن فضائلك

كانت عقارب الساعة في سباق محموم نحو الحادية عشرة صباحًا، عندما أنهى المدرس مراجعة النقاط الأخيرة للمادة، ففي الأسبوع القادم ستبدأ الاختبارات. لملمت أغراضي ووضعتها في حقيبتي الصغيرة على عجل، وخرجت من القاعة مسرعًا لأتمكن من اللحاق بالحافلة التي ستقلني للمسجد، عندما استوقفني صوت يقول:

- (محمد)... لحظة من فضلك.

التفت نحو الصوت لأجد (سالي) المشرفة الأكاديمية على المعهد تشير إليَّ قائلة:

- هناك أمرٌ أريد أن أتحدث معك بشأنه، هل بالإمكان أن تمشي معي إلى مكتبي؟

لاحظَتْ ترددي، وخصوصًا عندما لمحتني ألقي نظرة سريعة إلى ساعتي، وأضافت:

- مجرد دقيقة، ولا تقلق فلن تتأخر عن موعد صلاة الجمعة!

حزمت أمري وتوجهت معها نحو مكتبها، وبعد أن دخلت المكتب جلست هي على الكرسي، وبقيت واقفًا، لكيلا أطيل مدة مكوثي، رفعت رأسها نحوي وهي تزيح نظارتها وتقول لي بأسى:

- سأختصر ما سأقوله لك، فأعتقد أنك تعرف طلال، أليس كذلك؟ أعتقد أني رأيتكما معًا عندما كان يدرس لدينا؟

توقفت عن الحديث لحظة كأنما تلتقط أنفاسها قبل أن تفضي إليَّ بالخبر المزعج.

أصابني القلق، ففي آخر لقاء لنا كان (طلال) في وضع مزر، وفي حالة نفسية سيئة جدًا، فقلت متوقعًا الأسوأ:

- (طلال)!... ماذا جرى له؟

- إنه مريض، مريض جدًا يا (محمد)، وهو في حاجة إليكم، فأرجو ألا تتركوه وحيدًا، أتمنى أن تتصل به، بالرغم أنه لم يعد يقيم هنا، فقد انتقل قبل أسبوع إلى مدينة (دنيدن)، ومع أن حالته الصحية حرجة، فقد بدأ في دراسة الطب هناك.

- (طلال) يدرس الطب!

تمتمت متعجبًا.. ولم أتمالك نفسي من الابتسام، وأنا أتذكر موقفه مع (توماس)، وإفصاحه عن رغبته في دراسة الطب! هززت رأسي وقلت لسالي:

- سوف اتصل به إن شاء الله.

- شكرًا لك يا محمد، لقد علمت أنك ستهتم لأجله.

خرجت من المعهد، وكان أغلب الشباب الذين تعودت أن أذهب معهم إلى المسجد قد سبقوني. توجهت نحو محطة الحافلات، وكانت الحافلة رقم (٨٤) والتي تمر قريبًا من المسجد، تستعد

للوقوف في المحطة، صعدت فيها وجلست في مقعدٍ في منتصفها، وأنا أفكر في الحديث الذي جرى بيني وبين مسؤولة المعهد، وعن ماهية مرض طلال؟ وكيف عرفتُ عنه؟

وقبل أن تتحرك الحافلة صعدت امرأة في منتصف العمر إلى الحافلة، التفت كل العيون نحوها، ومن خلفي سمعت بعض التهكمات الخفية واللمز حول لباسها، فلقد كانت المرأة متحجبة الحجاب الإسلامي المنتشر في أغلب الدول العربية، وفي عزة ووقار جلست على مقعد شاغر ولا يفصل بيننا سوى ثلاثة صفوف فارغة، لم تلتفت إلى أحد، ووضعت حقيبتها بجانبها على المقعد الآخر.

بدأت الحمية الدينية تضطرم في داخلي، فلو تجرأ أحدهم على المساس بكرامتها، أو تهجم عليها بكلمات جارحة، خصوصًا بعد اللمز الذي سمعته خلفي، فسأجد نفسي من دون شك مدافعًا عنها، ولو انتهى الأمر بي إلى المشاكل.

توقفت الحافلة وصعد إليها عدد من الركاب، توجه أحدهم نحو المرأة، التي أزاحت حقيبتها من المقعد الذي بجانبها، وجلس الرجل وبدأ يتبادل معها الحديث. لم أسمع شيئًا مما دار بينهما، وإن كان انسجام بعضهما مع البعض يدل على أنهما من عائلة واحدة.

عندما قاربت الحافلة المسجد ضغطت على زر التوقف، وبدأت الحافلة تستعد للوقوف، وعندما قمت من مقعدي قام الرجل

والمرأة أيضًا لكي يخرجا من الحافلة، تركتهما ينزلان قبلي، وعندما غادرت الحافلة، التفت الرجل نحوي وقال بالعربية:

- السلام عليكم، هل أنت ذاهب إلى المسجد؟ فزوجتي وأنا لا نعرف المنطقة جيدًا.

كان يتكلم بلهجة سكان دولة عربية شمال إفريقية، فابتسمت وقلت:

- بالتأكيد، بإمكانكما المشي معي.

التفت نحو زوجته وقال لها:

- سنسرع نحن، وأنتِ اتبعينا على مهلك، فلقد تأخرنا على الصلاة.

وحثثنا المسير نحو المسجد الذي كان يبعد عنا بضع عشرات الأمتار، وفي الطريق بدأ (أحمد) يعرف بنفسه وأنه محام في بلده، وانتقل للعيش هنا مع زوجته (سلوى) التي تدرس في الجامعة وتحضر لنيل درجة الدكتوراه، وبعدها سألني:

- أأنت من السعودية؟

- نعم، أتعرف أحدًا هناك؟

- نعم، فأخت زوجتي تعمل طبيبة لديكم، في الرياض تحديدًا، وقد بدأت العمل مؤخرًا، وللأسف لا تعرف أحدًا هناك.

- الرياض مليئة بأناس من دولتكم.

- هي لا تعمل في الرياض بالضبط، وإنما في إحدى القرى التابعة لها، (مش فاكر اسمها بالضبط) لكن هي قرية في شمال غرب الرياض، فيها مستشفى كبير.

تردد لهنيهة ثم قال:

- نعم.. لقد تذكرت، اسم القرية (حريملاء)[١].

اتسعت ابتسامتي، وانقلبت إلى ضحكة خفيفة، والتفت نحوه ألمح نظرة الحيرة في عينيه، فلامبرر لضحكي في نظره، وقلت:

- معذرة يا (أحمد)، فحريملاء ليست بقرية، إنما محافظة (أد الدنيا).

أشرقت عيناه بفرح وقال:

- (أنت بتعرف البلد دي؟)

- أنا لا أعرفها فحسب، بل لقد ولدت فيها وعشت حقبة من حياتي بين جنباتها.

أعقدت المفاجأة لسانه، وتوقف عن المشي، والتفت خلفه نحو زوجته التي كانت بعيدة حينها، وهو يصرخ بفرح قائلاً مشيراً نحوي:

---

(١) حريملاء - محافظة تقع (٨٠ كم) شمال غرب مدينة الرياض، للمزيد www.hrmla.com

- (يا سلوااااااى... ده من حرِيملهَ!!)

بدا الفرح طاغيًا على ملامح المرأة التي كانت قد ابتعدت عنّا، وقالت كلمات لم أستطع تمييزها. لم نكن حينها نمشي في الطريق وحدنا، فلقد كان هناك العديد من المسلمين في طريقهم إلى المسجد، وبعد صرخته نحو زوجته التفت الكل نحونا، وبدأ (أحمد) يمطرني بوابل من الأسئلة، عن (حريملاء) وهل أعرف أحدًا ممكن أن يساعد (أخت زوجته) في غربتها، وأخذ جميع أرقامي الهاتفية في السعودية وفي نيوزيلندا، وبدأ يلح علي في أن أمر عليه في منزله لكي أتعشى معهما، وأخبرهما عن (مسقط رأسي)، وأنا أحاول أن أتهرب من مواعيد كهذه.

أنقذني من سيل أسئلته المنهمر وصولنا نحو المسجد، وعندما دخلنا التفت نحوي قائلاً:

- أرجو أن أراك بعد الصلاة.

كان الخطيب يستعد حينها لاعتلاء المنبر، وبعد أن قُضيت الصلاة، خرجت نحو الساحة الخارجية للمسجد، حيث ينتشر الباعة المتجولون، فهذا يبيع الخبز العربي، وآخر يبيع (السمبوسة المحشوة باللحم أو بالخضار)، وهناك تجد اللحم والدجاج الطازج والمذبوح حسب الطريقة الشرعية.

كنت أتنقل بين المجموعات أحادث هذا، وأمازح الآخر، وعندما وقفت قريبًا من بائع الفطائر، سمعت صوتًا من خلفي يقول:

- (محمد) ماذا تنوي أن تشتري لي في آخر يوم لي في هذا البلد؟

التفتّ لأجد عذيب، المبتسم بحزن، وهو مستمر يقول:

- سوف أرحل اليوم بعد العصر، وقبل ذلك سأتناول طعام الغداء لدى (زكريا)، وبعدها سأغادر معه إلى المطار، أعتقد أن هذه آخر مرة سأراك فيها.

شعرت بغصة في حلقي وأنا أجاهد نفسي لأتصنع الابتسام، وحاولت بكل ما أستطيع أن أقضي آخر الدقائق معه من دون أن تطفر عيناي بالدموع، ومن دون أن يتهدج صوتي بعبرتي، فغالبًا ما تنهار قواي في لحظات كهذه.

كان الوقت يمضي بسرعة معه، فأكلنا.. وشربنا.. واستمتعنا، وعندما حانت لحظة الرحيل عانقته بقوة، وتبعته بعيني الدامعتين وهو يمشي نحو السيارة، محاولاً أن أحفر ملامحه في ذاكرتي، وعندما تحركت السيارة فتح نافذتها وأخرج يده ملوحًا، حرصت على أن احتفظ بصورته في مخيلتي وهو بهذه الحالة، فهذه قد تكون النظرة الأخيرة، فربما لن أراه بعد اليوم.

وإلى الأبد!

عدت أدراجي إلى داخل المسجد، وجلست بحزن على أقرب كرسي في المدخل، عندما أقبل (أحمد)، وهو فرحٌ بالعثور عليّ،

أعاد دعوته مرة أخرى، وإن كان فتر حماسه، خصوصًا عندما رأى الحالة النفسية السيئة التي أمر بها، ولكنه لم يغلق بابها وقال:

- سأتصل بك لاحقًا... وعندها لن ترد دعوتي.

تركني وأنا أشيعه بابتسامة حزينة، وبعد لحظة أقبل (وليد) من داخل المسجد، وجلس بجانبي، لم نتحدث كثيرًا، فلقد كان هو الآخر متأثرًا بأمر ما.

إن ما يعجبني في (وليد)، حرصه على أي شاب يقيم في الخارج كما لو كان أخاه أو صديقه العزيز، وبغض النظر عن الاعتبارات العرقية، أو القبلية، كان (وليد) و(أبوحاتم) دائمًا هناك... دائمًا في خدمتك!

كنت في حالة نفسية سيئة، وكذلك كان هو، فقلت في نفسي: إننا نحتاج إلى نوع من التغيير لكي نخرج أنفسنا من هذا النفق المظلم.

التفتّ نحوه وقلت:

- وليد، ماذا لديك الآن؟

- لا شيء... لماذا تسأل؟

- دعنا نخرج من هنا، فكما تلاحظ لم يبق سوانا.

كانت الساحة الخارجية قد خلت من المصلين، وبدأ الباعة في جمع أغراضهم استعدادًا للرحيل، خرجت مع (وليد) وتوجهنا نحو سيارته، وعندما ركبنا التفت إليَّ وقال:

- إلى أين؟

- (عازمك في كوفي شوب، قهوة وسوالف)

- (قدّام!)

في سيارته الرياضية، اخترقنا الطرقات غارقين في بحر صمتنا وأفكارنا الخاصة، وعندما وصلنا أوقفنا السيارة في المكان المخصص لذلك، ومشينا نحو المقهى، جلسنا في مكاني المفضل، وقلت له مخترقاً حاجز الصمت الذي يلفنا بينما نحن نحتسي المشروب الساخن:

- (وليد)، ما الذي يشغل بالك؟

انتبه فجأة، وكأنني أيقظته من نوم عميق، وهو يقول:

- ماذا، لا شيء في ذهني.

- دعك من هذا، فهناك فكرة تسيطر على ذهنك، وتأثيرها يظهر جليًا على جوارحك.

تنفس بعمق، ونظر إلى الشارع أمامه، وأطال النظر، وبعد لحظة عاد نحوي وهو يتنحنح قائلاً:

- هل تعرف يا (محمد) ما أكثر شيء أكره رؤيته؟

لم يكن ينتظر بسؤاله إجابة مني، لذا تركته يواصل:

- إنني أكره رؤية شبابنا ينسلخ من مفاهيمه ومعتقداته، ويتعلق بالتفاهات، إنني يا (محمد) أتفهم أنها نزوة ربما نمر بها جميعًا، وكبوة نتعلم منها، ولكني لا أحتمل أن تبقى طويلاً لدى الشاب، وكذلك يهزني من الأعماق أن تؤثر هذه المرحلة في الشاب وتجعل من مرورها سببًا دائمًا لتعاسة هذا الشاب، فعندما يقع الشاب في المخدرات، فإن تأثيرها لن يزول حتى ولو بعد سنوات من تركها، بل إن أحد الشباب الآن، واعذرني في عدم ذكر اسمه، قد اكتشف أنه يحمل في جسمه مرضًا من أخبث أمراض هذا العصر، ولا يُعرف لهذا المرض أي دواء حتى الآن.

كان (وليد) يتحدث بحرقة، كأنما يتحدث عن أقرب الناس إليه، حاولت أن أخفف ما يشعر به، غير أنه واصل قائلاً:

- إن أشد ما يجعلني أعاني هو أن الشاب عندما يتمادى فهو لا يتوقف إلا عندما تكون نقطة التوقف قد فاتت، وعندها لا ينفع الندم، ولا يجدي النحيب. إنني يا (محمد) لا أتحدث عن رحمة الله ومغفرته، فهذه لا أنا ولا أنت نستطيع أن نتحكم بها، ولكني أتحدث عن عواقب مثل هذه التجاوزات في الدنيا! فهناك شباب زُج بهم في السجون لأسباب تافهة، كان بيد كل منهم

التوقف، ولكنه عندما حانت تلك اللحظة، لم يفعلوا، وآخرون تزخر بهم المستشفيات بسبب أمراض جنسية، أو سرطانية، وكما قلت لك فإن أحد الشباب يرقد في مستشفى (دنيدن) منذ أسبوع بسبب هذه التجاوزات.

ماذا ... (دنيدن).. اسودت الدنيا أمام ناظري، وأنا أتذكر كلام (سالي) عن (طلال) " إنه مريض، مريض جدًا يا (محمد)... فلقد انتقل قبل أسبوع إلى مدينة (دنيدن)، ومع أن حالته الصحية حرجة، فلقد بدأ في دراسة الطب هناك."

ترددت في سؤال وليد، عمّن يرقد في المستشفى هناك، وعندما رأى ما اعتراني، قال لي وهو لا يدري عمّا يعتمر في داخلي:

- اعذرني يا (محمد) على إزعاجك بكل هذا، ولكنها هموم تغلي بداخلي، وأحتاج من حين إلى آخر أن أنفس عنها إلى شخص أثق به.

لم أكن في حالة أستطيع أن أفهم فيها ما يقوله (وليد)، فلقد كانت المفاجأة أكبر من أن أتحملها، والأسئلة تتكاثر بداخلي بسرعة لا يمكن السيطرة عليها، حاولت أن أستزيد من (وليد)، غير أنه أغلق الباب أمامي قائلاً:

- أرجوك يا (محمد)، لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى، فهو يسبب لي الألم الشديد.

غادرنا المقهى، ووليد يحاول أن يُلطف الجو بمداعبته اللطيفة، غير أني لم أكن في مزاج يمكن أن يتقبلها.

عندما أنزلني في المنزل، التفت وقال لي:

- أعتذر مرة أخرى على إزعاجك، والليلة لا تتأخر فالموعد كالعادة لدى (أبوحاتم).

دخلت المنزل الخالي، فـ (جون) و(سالي) لا يعودان إلا بعد غروب الشمس غالبًا، صعدت إلى غرفتي، وبكامل ملابسي رقدت على السرير أفكر فيما سمعته قبل قليل، وما الاحتمالات الممكنة، حاولت أن أتصل بطلال، غير أن هاتفه كان مغلقًا، وبكل يأسي وحيرتي غرقت في نوم مليء بكوابيس عن المستشفيات والمصحات... و(طلال)!

أفقت من نومي على صوت الساعة التي أعلنت دخول وقت المغرب، وبعد أن أديت الصلاة، حملت جهازي المحمول، ونزلت إلى صالة الجلوس وجلست على الكرسي الهزاز، ووضعت كوب الشاي الساخن على الطاولة التي كان عليها صندوق عتيق لأول مرة أراه، بدا من الخارج ثقيلا وثمينًا جدًا، وقد كان مغلقًا بقفل كبير، لم أعره مزيدًا من الاهتمام، والتفتّ نحو التلفاز وضبطته على قناة إخبارية بعد أن كتمت الصوت، وبدأت أعمل على جهازي المحمول، كنت أتصفح الصور الموجودة في جهازي، والحنين والشوق يقتلانني

للعودة إلى بلدي، فلقد بقي على موعد عودتي قرابة ستة أيام، التقطت سماعة الهاتف، واتصلت بمكتب الخطوط، وأكدت موعد رحلتي، فسأغادر مساء يوم الخميس القادم، في تمام الساعة السادسة.

سمعت صوت باب المنزل يُفتح و(جون) و(سالي) يدخلان بهدوء، فتح باب غرفة الجلوس، وأطلت منها (سالي) وقالت:

- مساء الخير أيها الغريب، منذ مدة لم نرك تجلس هنا!

خجلت من نفسي، فلقد كنت في معظم الشهرين الأخيرين اللذين قضيتهما بين أركان منزلهما، أمر فقط ملقيًا تحية الصباح عليهما، وأخرج ولا أعود إلا بعد أن يكونا قد أويا إلى فراشهما في الليل، وقد أعود مبكرًا عندما يكونان خارج المنزل لتناول طعام العشاء لدى أحد أصدقائهما الكثيرين.

- أتمنى ألا تخاف من الموتى؟

قالت (سالي) وهي تشير نحوي! لم أفهم ما تعنيه عبارتها، ولا حتى إشارتها، وعندما لمحت التساؤل يطل من عينيّ قالت:

- الصندوق الذي أمامك.

التفتّ نحو الصندوق أرمقه بحيرة، وعندما لم أفهم ما ترمي إليه، هززت كتفي وأنا ألتفت نحوها، وعندما يئست من فهمي للأمر قالت:

- إن الصندوق الذي أمامك فيه رماد جثة والدي، فلقد توفي منذ مدة، ولم أستطع دفنه حينها، فطلبت أن تُحرق ويوضع رماده هنا، وأنتظر الآن أن تتوفى والدتي التي تعيش تحت الأجهزة منذ قرابة ثلاثة أشهر لكي أخلط رمادهما معًا وأنثره من فوق أحد الجبال.

لا أستطيع أن أصف مدى الرعب الذي سيطر عليّ حينها، فلقد كنت طوال ساعة كاملة في غرفة واحدة مع جثة رجل ميت! ولا يفصل بيننا سوى بضعة سنتيمترات!

بدأت (سالي) تتحدث عن والدها، وهي ترمق الصندوق بعينين دامعتين، وأنا أحاول أن أسيطر على نفسي، ولا أريد أن أجرح مشاعرها بمغادرتي وهي تتحدث.

أنقذني من الموقف دخول (جون)، وعندما سمع حديث زوجته عن والدها، فقال لي:

- يبدو أنك التقيت والد (سالي).

حاولت أن أبتسم أو أن أرد، غير أن صوتي خرج مهزوزًا:

- إنها... مفاجأة.. لم أكن أحسب حسابها.

ابتسم مشفقًا عليّ، وقال محاولاً أن يهون الأمر:

- لا بأس عليك، ليتك رأيت ردود فعل أصدقائنا، لم يستطع

بعضهم تناول طعام العشاء إلا بعد أن أخرجت الصندوق من الغرفة.

أنقذني من الموقف رنين هاتفي المحمول، فاستأذنتهما لأجيب المكالمة، حملت جهازي المحمول وخرجت من الغرفة، واتجهت نحو غرفتي، كان المتصل هو أخي، وهو الوحيد الذي يعرف موعد عودتي، يتأكد من أني مازلت قادمًا في الموعد، وأكدت عليه أن يبقى خبر قدومي مفاجئًا للجميع.

خرجت من المنزل عندما أعلنت ساعتي دخول السابعة متوجهًا نحو منزل (أبوحاتم)، وعندما دخلت المنزل كان عدد من الشباب مصطفين يؤدون صلاة العشاء، كان اللقاء كالعادة ممتعاً جدًا، ففيه دعم معنوي هائل، ويعزز من نفسيتك ويُدعمها، و(أبوحاتم) كعادته يبتسم ويحادث هذا، ويؤانس الآخر، ولكني كنت ألمح حزنًا دفينًا يظهر على سطح مشاعره بين فينة وأخرى، وخصوصًا عندما يلتزم الصمت الذي بدا أنه ينشده أكثر من أي شيء آخر.

كنت أجلس بجانب (فاضل) الذي كان يحادث (أبوحاتم) بصوت خافت، وفاضل مقطب حاجبيه، ويردد بصوت خفيض (لا حول ولا قوة إلا بالله!)، وهما يتحدثان بشأن الذهاب إلى مدينة مجاورة في الغد، لزيارة أحد الشباب في المستشفى! وإن كان اسم (طلال) تردد أكثر من مرة في حديثهما.

أمسكت يد (فاضل) وهمست في أذنه وقلت:

- فاضل، أريد أن أكلمك بشأن مهم، ولكن ليس هنا، بل في الخارج.

وقمت من مكاني، وخرجت خارج المنزل، وبعد لحظة خرج (فاضل) خلفي وفي عينيه ألف تساؤل، استجمعت أفكاري، وأخبرته بما جرى بيني وبين (سالي) المشرفة في المعهد، وعن حديثي مع (وليد)، وحتى مع ما تناهى إلى مسمعي من حديثه مع (أبوحاتم)، وقبل ذلك عن موقفي مع طلال ولقائي معه في الحديقة منذ مدة طويلة... وقلت له:

- أرجوك أخبرني ما الذي يحصل هنا، وهل (طلال) بخير؟

صمت للحظة، وصمته يزيد من اشتعال النار بداخلي، ثم التقط أنفاسه، وأغمض عينيه، والتفت نحوي وقال لي وكل كلمة من كلماته تقطر حزنًا وألما:

- يا (محمد).. إن (طلال) مصاب بمرض (الإيدز)!

لا أدري ما الكلمات المناسبة التي تصف موقفي عندما ألقى (فاضل) بهذه الكلمات، فلقد اسودت الدنيا في عيني، واقشعرت كل خلية في جسدي، وأنا أبحث جاهدًا عن أنفاسي لألتقطها، ورعشة قوية تنتشر بين جوانحي، ونبضات قلبي تتسارع وتدق في عنف.

- ماذا؟ ... كيف؟... أين؟... متى حصل هذا؟

كانت الكلمات تتفجر بين شفتي، والأسئلة تدور في فلكي، والإجابات تتجلى كأوضح ما تكون في صور رأيت طلال فيها.

- ولماذا (دنيدن)؟ أليس من الأفضل له أن يعود إلى بلده؟

قطب (فاضل) حاجبيه، وهو يقول:

- يعود إلى أهله وهو يحمل هذا المرض!!، هذا آخر شيء يحتاج إليه، خصوصًا وهو ابن كبير قبيلتهم، بالإضافة إلى أنه ينوي دراسة الطب هناك، والعلاج في مستشفاها، فبالرغم من كل شيء مازال الفيروس في مراحله الأولى، والعلاج مازال ممكنًا.

عاد (فاضل) إلى الداخل، وبقيت في الخارج لمدة أستجمع قواي، وأعيد ترتيب نفسي بعد هذه الهزة العنيفة، وبعد أن هدأت أنفاسي، واستقرت نبضات قلبي المكلوم، عدت إلى الداخل، محاولاً أن أندمج في الجو السعيد، غير أن روحي المجروحة لم تستطع.

عندما عدت إلى المنزل قرابة الثانية عشرة ليلاً، كان المنزل يغرق في الظلام الدامس، وبصعوبة وصلت إلى غرفتي متحاشيًا المرور بغرفة الجلوس حيث يقبع شبح الموت متمثلاً في صندوق قديم، جلست على السرير أفكر في كل ما حصل في هذا اليوم،

فلقد كان مليئًا بالأحداث السريعة والمفجعة، فمن رحيل عذيب، إلى مفاجأة صندوق الموت، ومن ثم خبر (طلال) المفجع.

قمت من السرير، ووقفت أمام المرآة، أرمق وجهي المرهق بنظرة حزينة، كانت البرودة تنتشر في أطرافي، وظلمة من الأفكار السوداوية تنتشر في مخيلتي، وكل هذه الأحداث المأساوية تتخاطف من حولي.

عدت إلى فراشي، وفي ظلمة الغرفة، أغمضت عيني، محاولاً أن أمحو ما علق في ذاكرتي من أحداث هذا اليوم، ولكني لم أستطع، وفي أعماقي أدركت أن هذا اليوم لن ينمحي من ذاكرتي أبدًا...

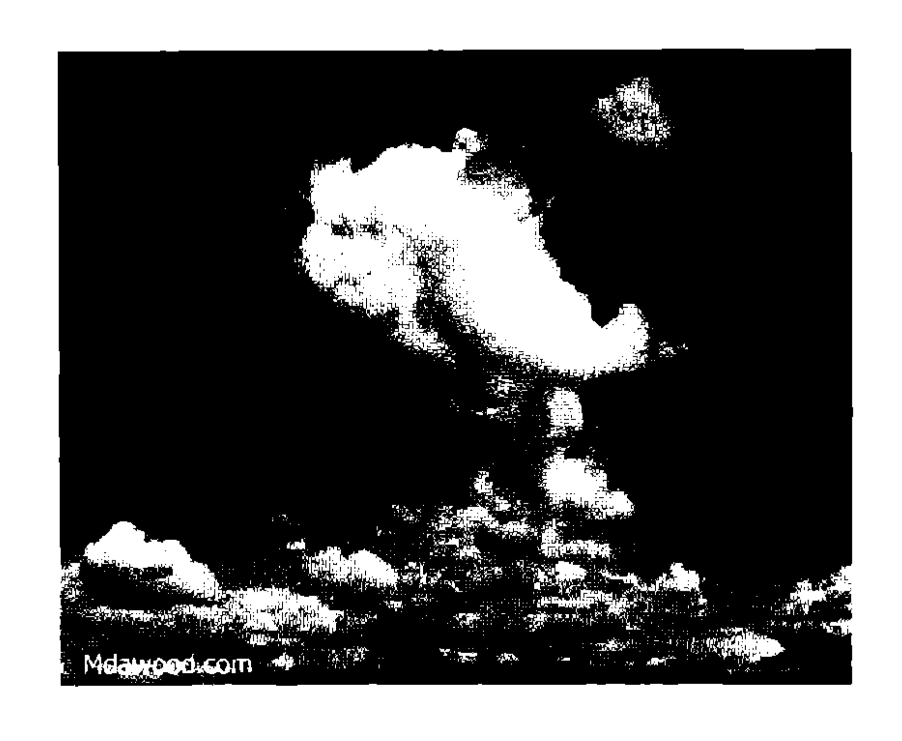
فمهما يكن...

لم.. ولن أنسى ما حدث في..

الجمعة الأخيرة.

١٤

سحابة صيف



مقولة نيوزيلندية

Toku reo toku ohooho

لغتي مفتاح تقدمي

- الرجاء من السادة الركاب العودة إلى مقاعدهم وربط أحزمة الأمان!

دوى صوت الكابتن في أرجاء الطائرة الكبيرة، وانتشر الملاحون بسرعة بين الركاب يتأكدون من تنفيذ التعليمات المعتادة، حاولت أن أعرف ما السبب من هذا النداء؟ غير أن تساؤلاتي اصطدمت بعيون جامدة وصمت مطبق!

ألقيت نظرة سريعة إلى الخارج، كانت السحب متراكمة بشكل مخيف، وتبرق بشكل مرعب. أغلقت عينيّ، وأسندت رأسي على المقعد، وأنا أتلو بيني وبين نفسي الأدعية والأذكار، وسرعان ما عمَّ المكان هدوء مفاجئ، فلم تعد تسمع سوى الصمت المخيف، كانت كلمات الكابتن مع الهزات الخفيفة التي بدأت تهز جسم الطائرة سببًا لهذا، حتى الأطفال بدا أنهم أدركوا خطورة الموقف فأرجؤوا بكاءهم لما بعد.

لم يستمر الصمت طويلاً، فسرعان ما بدأت الطائرة في الاهتزاز، وعلا صوت زئير الرياح المصطدمة بعنف في جسم الطائرة، وبدا أن الكابتن يحاول جاهدًا لكي يفرض سيطرته على مركبته، وعاد صوته مرة أخرى يطلب من جميع الملاحين العودة إلى مقاعدهم، عندها اختفى الجمود من أعين الملاحين، وحل محلها قلق... من المجهول!

حاولت السيطرة على نفسي بالتنفس بعمق، وأنا أصغي إلى المحركات التي تعمل بأقصى طاقتها لتفادي السحب الركامية التي دخلنا فيها، بينما كانت الطائرة تومض كل لحظة بفعل البرق المشتعل خارجًا، والهلع بدأ يفرض سيطرته على كل الركاب.

أخرجت مصحفي وبدأت أقرأ بصوت منخفض، كنت أريد أن أهدئ من روعي، محاولاً أن أقنع نفسي بأن الأمر مازال تحت السيطرة، وأن الكابتن مؤهل لمثل هذه الظروف، وأنها مجرد عاصفة عادية، تمضي الطائرة فيها بسلام كما مضت آلاف الرحلات...

وبالرغم من الاهتزاز المتواصل، والأصوات القوية الصادرة من الآلات والرياح على حد سواء، والظلام الذي يعم أرجاء الطائرة، بالإضافة إلى البرق الذي يومض في كل لحظة، إلا أني كنت أهون الأمر على نفسي، وأثبت لها بأنها مخطئة فيما تذهب إليه، ولكن صوت الكابتن الذي دوى مرة أخرى.. أذهب كل ذلك:

- أرجو من السادة الركاب الانتباه،

ارتفعت الأعين تحدق في المجهول، وتصغي بأمل إلى صوت الكابتن الموغل في التشاؤم:

- نحن الآن في وسط عاصفة رعدية مفاجئة، ولا خطورة منها حتى الآن ولكن محركات الطائرة قد تستنزف طاقتها عندما

نستمر في الخوض فيها، لذلك سنضطر إلى محاولة للخروج منها، ومن ثم الالتفاف حولها. آمل من الركاب جميعًا مسافرين وملاحين الالتزام بالجلوس في المقاعد وربط أحزمة الأمان، وليحفظنا الله.

لم يزد هذا النداء الركاب إلا خوفاً خصوصاً عندما ارتفعت الطائرة إلى الأعلى، واشتد ضجيج المحركات، وازداد معه اضطراب الطائرة وهي تعلن عن احتجاجها على هذا التصرف من الكابتن.

استمرت الطائرة تضطرب وتهتز بعنف، والعيون تزداد اتساعًا، والخوف مع الصمت ممتزجان ليكونا لوحة مثالية للرعب، عندما دوى صوت فوق رؤوس الركاب فجر دوامة الصمت المخيف، فلقد انفتحت بعض الخزائن المخصصة للحفظ، وسقط عدد من الحقائب على أرضية الطائرة، وانطلق معه صوت صراخ النساء، وأعلن الأطفال عن خوفهم بالبكاء.

- لن تتحمل الطائرة كل هذا الضغط، صدقني أنا أعرف ما أقول فأنا مهندس طائرات، وهذا الكابتن إما أنه مجنون أو لا يدري ما يفعل.

كان المتحدث بجانبي، يتحدث بارتعاش وكل جسمه يهتز بفعل اهتزاز الطائرة. أغلقت عيني محاولاً تجاهله، فهل هذا هو وقت كلام كهذا؟!

هل من المعقول أن تأتي النهاية الآن؟

ومن قال إن لها وقتًا محددًا؟

لقد تعودت أن تحدث المصائب لغيري فقط،

لكن هذه القاعدة لم تعد موضع تنفيذ...

فما يحصل الآن.. هو يحصل لي أنا..

وفي طائرة في مكان مجهول فوق المحيط،

وبجانب جار مزعج!

- انظر إلى المحرك، سينفجر قريبًا.

التفت نحو النافذة وأنا أرمق الدخان الأسود الكثيف المنبعث من المحرك، عندما انبعث اللهب فجأة من المحرك تبعه دخان أبيض كثيف أُطلق ليطفئ احتراق المحرك.

اختل توازن الطائرة وبدت لوهلة كورقة شجر تحركها الرياح كما تشاء، ومالت نحو الجانب الأيسر وبدأت في السقوط.

فوق رأسي مباشرة سقط قناع الأكسجين الأصفر، وبصعوبة التقطت واحدًا، فالاهتزاز الشديد والصراخ المدوي في المكان، والنحيب المرير، واتجاه الطائرة نحو الأرض.. بسرعة يجعلك تدرك بأن النهاية قد حانت، وأن هذه رحلة بلا عودة.

كان من بجانبي يصرخ بهستيريا وعيناه تدوران في محجريهما وهو يضحك بجنون، فلم يتحمل عقله ما يجري، وحل حزام مقعده وقام وهو يترنح بشدة وسقط في الممر، وبدأ تتقاذفه المقاعد مع الاهتزاز الشديد وهو يقول:

ستنفجر..

ستنفجر..

ستنفجر...

حينها دوى صوتٌ قوي رهيب، وشعرت بالطائرة تتمزق وتتشطر من المنتصف، ولفحني هواء شديد البرودة، وضعت يدي على مسندي المقعد، وشددت عليهما،..

وشريط الذكريات يمر أمامي..

ويختزل كل حياتي..

أمام ناظري.

كان جاري يتخبط بين جوانب الطائرة، وهو يصرخ في جنون:

سنموت...

سنموت...

سنموت..

حاولت أن أستجمع شتات قواي لأطلق كلماتي الأخيرة، فلم أستطع...

وبالكاد تمتمت بكلمات مبهمة عندها أظلمت الدنيا أمام ناظري.

سكون مطبق...

فراغ سحيق...

هل مت؟

هل هذا هو الموت؟!

حاولت أن أفتح عيني فلم أستطع،

أعدت المحاولة وبصعوبة تمكنت من فتحهما...

لم أر شيئًا،

كنت ألهث بقوة،

والعرق يتصبب مني بشدة،

والظلام الشديد يحيط بي.

تحسست المكان،

كان لينًا.. ودافئًا...

لم أصدق..

لقد كنت..

في فراشي!

التفت بسرعة، كانت الساعة بجانبي تومض برتابة (٤:٠٧) صباحًا.

منذ متى وأنا نائم؟

لست أدري، فبعد هذا الكابوس الرهيب لم أعد أتذكر شيئًا.

استعذت بالله من الشيطان، ونهضت من فراشي بصعوبة، فمازلت أعاني آثار هذا الحلم المزعج، فتحت باب الغرفة بهدوء وتوجهت نحو المغسلة، وقفت أمام المرآة، أنظر إلى وجهي وأرمق الهالات السوداء التي تسبب بها ذلك الكابوس، فتحت صنبور الماء، وتركته ينساب لمدة بين يدي، وأنا غارق في تأملاتي، أخذت نفسًا عميقًا ونفثت الهواء ببطء محاولاً أن أُخرِج معه ما بداخلي من توتر وانفعال، وبكفين ممتلئتين بالماء غسلت وجهي وأنا أنتفض من برودة الماء، تركت الماء البارد ينساب على وجهي ليزيل ما علق به من آثار الإرهاق، أعدت الكرة مرات عديدة، إلى أن أحسست بصفاء عقلي من الشوائب التي علقت به.

عدت إلى غرفتي، لكني لم أحتمل البقاء بها بعد ما رأيته من أهوال، حملت جهازي المحمول ونزلت إلى الصالة، كان الوقت

يمضي ببطء شديد، وباقي على الفجر قرابة الساعتين، فأعددت لنفسي كأسا من الشاي الساخن بدأت أتصفح الإنترنت.

كنت أريد أن أخرج من الحالة الذهنية التي أعيشها، لكن الوقت لم يكن مناسبًا للخروج خارج المنزل، فأخذت جوالي وأرسلت لـ (وليد) رسالة بأني أريد مصاحبته إن أراد الذهاب إلى المسجد فجرًا، بالرغم من أن الوقت مازال مبكرًا على ذلك، أغلقت جهازي، وصعدت إلى غرفتي لأعيد ترتيب حقيبتي، فغدًا هو آخر يوم لي في هذه المدينة.. وهذه الدولة!

انهمكت في الإعداد والترتيب إلى أن اتصل بي (وليد) وأخبرني أنه في الطريق، نزلت إلى الطابق السفلي وبهدوء خرجت لأجد (وليد) في الخارج ينتظرني، ركبت معه وبعد أن تبادلنا التحية قال لي:

- ماذا بك؟ تبدو مرهقًا! ألم تنم جيدًا؟

- لاشيء !!.. لكن يبدو أني نمت أكثر من المعدل الطبيعي.

بعد الصلاة أحسست براحة عظيمة، فكأنما قد غسل ما بداخلي من توتر، وزال كل ما بي من أثر أحدثه ذاك الكابوس المرعب، التفت إلي (وليد) بعد أن ركبنا السيارة وقال:

- تبدو بحال أفضل؟

- الحمد لله.. أشعر أني أحسن بكثير.

- ما رأيك.. هل تريد أن تذهب إلى مكان ما؟

ابتسمت في جذل، وقلت له:

- (بصراحة نفسي في (كبدة حاشي) أو (تميس وفول).

ضحك (وليد) وقال:

- آه يا (محمد)، إني أحترق شوقًا لمثل هذه الأكلات... ولعلك عندما تسافر غدًا ترسل لي بعض هذه الأشياء.

كنّا قد وصلنا إلى المنزل، ترجلت من السيارة وصعدت إلى أعلى، كانت الساعة تقترب من السابعة صباحًا، عندما خرجت مرة أخرى متوجهًا نحو المعهد، حاملاً الكاميرا معي، فأنا أعيش لحظاتي الأخيرة في هذه المدينة، لذا حرصت على توثيق كل شيء.

دخلت بوابة المعهد متذكرًا يومي الأول، وأنا أعيش ذكريات اللحظات الأولى، وأرمق الطلاب الجدد بعين الطالب الخبير، العارف ببواطن الأمور، وأن هناك قلقا من المجهول يختبئ خلف تلك النظرات الباسمة، ورهبة التجربة الأولى، كنت أعرف كل هذا... لأنه قد حصل لي.

- (محمد).. لحظة من فضلك!

كانت موظفة الاستقبال تشير إليَّ، تقدمت نحوها، وأخرجت بعض الأوراق وقالت:

- غدًا الخميس هو آخر يوم لك معنا، أليس كذلك؟

- للأسف.. هذا صحيح، فلقد أمضيت معكم وقتًا ممتعاً.

ابتسمت وهي تقول:

- ولكنك مشتاق فيما يبدو للعودة.

- بالتأكيد... من ذا الذي لا يشتاق لأحبابه؟

أخذت مني بعض المعلومات عن موعد مغادرتي، ورقم رحلتي، ثم قالت:

- ولكنك ستأتي يوم غد! أليس كذلك؟

- لست متأكدًا، فرحلتي في السادسة مساءً، لذا سأحاول المجيء صباحًا.

- احرص على ذلك، فهناك حفل سيقام للخريجين، في العادة نحن نقيمه في يوم الجمعة، ولكنّ هذا الجمعة يوافق إجازة وطنية، لذا سيعقد الحفل في يوم الخميس بدلاً منه.

- سأحاول... شكرًا لكِ.

توجهت نحو القاعة الدراسية، التي كانت خالية من الطلاب، دخلت القاعة وأغلقت الباب خلفي، توجهت إلى آخرها وجلست... وحيدًا.

كنت غارقًا في تأملاتي، محاولاً أن أنسى ما حدث لي صباح هذا اليوم، أفكر في رحلتي غدًا، وعن الهدايا التي يجب أن أحضرها... وهل يجب أن أحضر شيئًا؟

بدأ الطلاب يتوافدون على القاعة، وبعد مدة دخل المدرس (إدوارد) وبدأ في الدرس المعتاد.

بعد انتهاء الدرس، خرجت من المعهد متوجهًا نحو المنزل، كانت الساعة تقترب من الرابعة مساءً عندما دخلت المنزل، لم يكن هناك أحدٌ سواي، هرولت ناحية غرفتي، وبصعوبة دخلتها متحاشيًا النظر إلى الفراش، حيث عانيت البارحة من أسوأ كوابيسي، وبدأت أكمل ما بدأته من ترتيب لحقيبتي، وفي تمام السادسة كنت قد أنهيت إعادة كل شيء إلى مكانه في الحقيبة، عندما اتصل (أبوحاتم) يؤكد موعدًا سابقًا بشأن العشاء مع الشباب في منزله.

أغلقت الحقيبة، وخرجت من المنزل متوجهًا نحو منزل (أبوحاتم)، وعندما دخلت كان هناك عدد قليل من الشباب يستعدون لأداء صلاة المغرب، وبعد الصلاة جلست بجانب أحد الشبابِ الذين قدموا للتوّ، كان صغير السن، فلقد نجح من (ثاني ثانوي) فأرسله أهله لدراسة اللغة، ومن حسن حظه التقى أحد الشباب الذين دلوه على هذه المجموعة الرائعة.

كان الشاب يمتلئ حماسةً وأفكارًا بشأن المستقبل وهو يتحدث عن آماله وأحلامه، وبجانبه شابٌ آخر أكمل تعليمه الجامعي وجاء

هو الآخر كذلك لدراسة اللغة، ورجل آخر يعمل في شركة كبيرة جاء هو كذلك للتحصيل اللغوي، ما شدني في الأمر هو أنهم كانوا جميعًا في مستويات لغوية متدنية جدًا، والقاسم المشترك بينهم أنهم لم يدرسوا قبل مغادرتهم لبلدهم إلا القليل قبل الحضور إلى هنا.

كانت كلمات المدرس (إدوارد) ترن في أذني لحظتها وهو يتحدث بحماسة عن أفضل وسيلة لدراسة اللغة في الخارج، فلقد كان يؤكد أن يدرس الطالب في بلده على الأقل لمدة ستة أشهر في أحد معاهد اللغة، ومن ثم يسافر للتطبيق، والاستزادة.. وإلا ستكون رحلته تلك مكلفة ولا تؤدي النتائج المرجوة منها وكان دائمًا يقول:

- يا (محمد)، إن تعليم اللغة يمر عبر ثلاث مراحل، فالمرحلة الأولى يتعلم فيها الطالب الأساسيات كـ (الحروف والكلمات وبعض الجمل الأساسية مثل: "ما اسمك؟") وبعد قرابة ثلاثة أشهر من التعلم يبدأ الطالب بدخول المرحلة الثانية فيبدأ بمعرفة بعض الجمل والتراكيب اللغوية مثل (اللغة المستخدمة في المطاعم، والأسواق.. والشوارع) ويكون الطالب حينها يفهم ما يُقال له، ولكنه لا يستطيع الاستجابة بلغة سليمة، وعندما نصل إلى المرحلة الثالثة التي يكون فيها الطالب متحدثًا ومستمعًا جيدًا، فهذه تحتاج إلى صبر ودراسة جادة تقارب تسعة أشهر.

وأذكر أنه كان يؤكد أن السفر للخارج للدراسة لا يعد خيارًا جيدًا إلا بعد أن يقترب الطالب من المرحلة الثالثة.

كنت غارقًا في التأمل في هذا الموضوع عندما فاجأني (وليد) بقوله:

- (ماش... اليوم مانت على بعضك!! لا تصير "تحب" وحنا ما ندري!)

ابتسمت نحوه وقلت:

- بالفعل لقد وقعت على الجرح يا (وليد).. فلقد عذبني (الحب)!... فأنا (أحبك في الله !).

احمر وجهه خجلاً، وتمتم قائلاً:

- أحبك الله الذي أحببتني فيه.

كعادة الأمسيات الرائعة انقضت على عجل، وأنا أحاول أن أحفر تفاصيلها في ذاكرتي، فهذه آخر ليلة لي هنا، وربما هذه آخر مرة أرى فيها هذه الوجوه الطيبة، فلست أدري.. أسنلتقي مرة أخرى، أم أن هذه هي لحظة الفراق؟

عندما قمت أريد الذهاب إلى المنزل، قام الجميع لتوديعي، والكل يشد على يدي وبعضهم معانقًا.. كانت الكلمات تفر مني لحظتها، فما أصعب أن تختزل مشاعرك في كلمات، وعبارات مثل

(لا تنسانا.. اتصل علينا.. بيننا ماسنجر.. بريد إلكتروني.. اتصال هاتفي... إلخ) تتردد بكثرة، حاولت أن أحبس دموعي في محجرها، غير أن العينين رفضتا أن تبوءا بحملها لوحدهما.

خرج (أبو حاتم) لتوديعي وهو يقول غدًا سأمر آخذك إلى المطار، حاولت أن أتهرب.. ولكني لم أستطع أمام نظراته، وكلماته الحازمة.

في تلك الليلة الباردة كنت أمشي على مهلي عائدًا إلى المنزل، أنفخ البخار من فمي، أصغي لصوت السكون الذي يقطعه صدى خطواتي، وعندما دخلت المنزل المظلم، لم أجد أحدًا، كانت هناك ورقة مطوية بعناية من (جون وسالي) يعتذران لسفرهما المفاجئ، ويتمنيان لي سفرًا سعيدًا.

في تمام الثانية عشرة دخلت غرفتي، وأنا أرمق السرير برهبة، فتوجهت نحوه أتحسسه بهدوء وكأنما أعقد بيني وبينه صلحًا، اندسست تحت اللحاف، وأغمضت عيني بعد أن قرأت كل أذكار النوم التي أتذكرها، وأذكارًا أخرى.. ونمت بعمق، وعندما فتحتهما مرة أخرى كانت ساعة يدي تشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، نهضت من فراشي بنشاط، بالرغم من الساعات القليلة التي أمضيتها نائمًا، فاليوم هو.. يومي الأخير.

تأكدت من أن كل شيء على ما يرام، فحقيبتي جاهزة، وكل شيء في مكانه السليم، خرجت نحو المعهد؛ لأحضر الدرس

الصباحي، وأحضر حفل تسليم الشهادات. وبعد أن انتهى الدرس الذي أبى (إدوارد) إلا أن يكون درسًا خفيفًا أتبعه بموضوع مفتوح للنقاش كان يتمركز (حولي)، نزلنا معًا إلى مقر الحفل المصغر الذي يقام نهاية كل أسبوع لتوديع الطلاب، كان هناك عشرة طلاب سيتخرجون من المعهد، وكنت أحدهم.

استهل (جريج) حديثه المرح بتهنئة الطلاب بالمجهود الذي وصلوا إليه، وبدأ بتسليم الشهادات إلى الطلاب، وكنت آخر طالب سلمه شهادته، وعندما أردت المغادرة قال لي:

- إلى أين تظن أنك ذاهب؟

لم أستوعب ما يريد بالضبط، فحاولت أن أجيب، لكنه عاجلني قائلاً:

- نريد منك أن تلقي خطابًا بهذه المناسبة، كلنا نريد ذلك.. أليس كذلك؟

كان يوجه حديثه لجميع الطلاب في المعهد، الذين ضجوا بالضحك والهتاف أن (نعم... نريد ذلك)، عاد (جريج) إلى مقعده، وتركني وحيدًا مواجهًا الجمهور، الذي فاق عددهم مئة طالب وطالبة. وسرعان ما عم الصمت المكان، فلم تعد تسمع سوى صوت هدير آلات التدفئة، كنت أوزع نظراتي بين الحضور أفكر فيما سأقوله، لم أكن أخشى من الحديث في مكان عام كثيرًا، فلقد

تعودت مواجهة الجمهور منذ أن كنت صغيرًا، لكن ما يقلقني هو عدم التحضير لما سأقوله...

وما أقلقني أكثر هو الحديث بلغة لم أتقنها بعد.

بالرغم من الضحكات واللمزات التي بدأت تظهر هنا وهناك خلال مدة صمتي، إلا أني من خلال نظراتي نحو الطلاب والمدرسين أدركت أني أمام فرصة عظيمة ربما لا تتكرر أبدًا.. فكلهم الآن مستعدون لسماعي، ومتحفزون لما سأقول، التقطت نفسًا عميقًا، ورسمت ابتسامة على وجهي، وبدأت أتحدث...

بدأ حديثي بدعابة حول (جريج) وكيف أنه كان رعبًا لي طيلة مكوثي في المعهد (ضحك الجميع)، ثم شكرته وشكرت جميع المدرسين والطاقم الإداري في المعهد، وشكرت كذلك الطلاب... وسكت لحظة، وتصفحت خلالها الوجوه بسرعة، وابتسمت ثم قلت بالعربية:

- (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين... وبعد!!).

كانت العيون تحدق نحوي باستغراب، فسكت وقلت وأنا مازلت محتفظًا بابتسامتي:

- ماذا!؟.. ألا تجيدون العربية؟.. هل لابد أن أتحدث بالإنجليزية!؟

انفجر الجميع ضاحكًا، ثم انطلقت بعدها في الكلام، تحدثت في محاور عدة، بدأتها بإيضاح أن تعلم لغة أجنبية ليست هدفًا أساسيًا بالنسبة لي، ولكنه يأتي كهدف ثانوي، كانت الأفكار تتلاحق في ذهني، والكلمات تتزاحم على شفتي، تحدثت في مواضيع كثيرة، عن الفرصة الاستثنائية التي تحدث لنا جميعًا بالالتقاء بأناس من كل أنحاء العالم، يجتمعون في فصل دراسي واحد، ويجلس بعضهم بجانب بعض يتحدثون لغة واحدة، تحدثت عن الأسئلة التي كانت توجه لي من قبل كثير من الطلاب والطالبات، حول كل شيء، الإسلام، المرأة، القرآن.. وحتى الإرهاب!

كانت الأعين كلها متعلقة بي، شعرت بقوة حقيقية، خصوصًا عندما كنت ألمح الرؤوس التي تهتز اقتناعًا بما أقول، كنت أعلم أني لابد أن أختم كلامي،فالتفت حيث يجلس الطاقم الإداري للمعهد وقلت لهم:

- أعتذر عن الكلام الذي سأقوله.

ثم التفت ناحية الطلاب وأكملت حديثي:

- لنتناس تعلم اللغة لوهلة، فاللغة ستأتي سواء من المعهد أو من الشارع، أو حتى من محادثتك اليومية مع من تسكن معهم، لكن الذي قد يفوتك هو الاستفادة ممن بجانبك، فجلوسك بجانب الطالب الصيني، الأرجنتيني، التركي، السويسري أو حتى

السعودي هو فرصة لن تتكرر كثيرًا، لذا لنحاول أن نفهم كيف يفكر الآخر، وما هي مبادئه، ومعتقداته، ولنراجع ما نؤمن به جميعًا، ولنتعلم من بعضنا.

سكت لحظة، كان الصمت مطبقًا على الجميع، وتأثير الكلمات باديًا على الوجوه، فأنهيت حديثي قائلاً:

- مرة أخرى أشكركم جميعًا، وأشكر لكم وقتكم الثمين، ولنفتح بصائرنا وأعيننا لكل ما يفيد في إظهار حقيقة معدننا الأصيل.

لم أكن أتخيل أن تكون لكلماتي السابقة هذا التأثير المهول، فسرعان ما علا صوت التصفيق والتصفير، وعبارات الإعجاب تنهال عليَّ، في الحقيقة كان شعورًا رائعًا، أن تجد كل هذا الاستحسان، خاصة عندما تلقي خطابًا بلغة غير لغتك الأصل، وبأسلوب جديد نسبيًا، وأمام جمهور متعدد الجنسيات والأجناس.

كان قلبي لحظتها يوشك أن يقفز من صدري، مع دويه المزعج، والانفعال ترك احمراره على وجهي، فلم أعد أدري من ودعت ومن لم أودع، وعندما خرجت من المعهد، وجدت عددا من الطلاب السعوديين مجتمعين، قال لي أحدهم:

- (أثرك منتب سهل.. خطبة عصماء وحركات، صح أني ما فهمت منها شيء.. بس شكلك رهيب وأنت تتكلم).

تبسمت في داخلي، ومضيت أحث الخطى نحو المنزل، فبقي على رحلتي قرابة خمس ساعات، وفي أثناء دخولي للمنزل، اتصل (أبو حاتم) وأخبرني بأنه في الطريق، وبعد لحظات كان يقف أمام المنزل.

عندما نزلت بالحقيبة، كنت أتأمل المنزل الذي أمضيت فيه أكثر من شهرين، أتذكر كل موقف مر عليّ فيه، جلوسي في الصالة، ومحاولاتي في المطبخ، غرفة الجلوس، صندوق الموت، العائلة المرفهة، النقاشات المطولة مع رب الأسرة... كل شيء... فلقد كانت الأحداث تومض في ذهني وهي تتسابق تعرض علي كل ما اختزلته في ذاكرتي.

قبل أن أخرج من المنزل، ألقيت عليه النظرة الأخيرة،محاولاً حفر ملامحه في ذاكرتي، وعلى طاولة في غرفة الجلوس تركت مفتاح المنزل وورقة كتبت فيها رسالة وداع، وهدية مغلفة.

خرجت من المنزل أجر حقيبتي خلفي، أستنشق الهواء البارد الذي سأفتقده حتمًا، وركبت السيارة، عندما قال لي (أبو حاتم):

- أأنت مستعد للرحيل؟

ألقيت نظرة إلى وجهه الباسم وقلت له:

- على بركة الله.

انطلقت السيارة تطوي الأرض إلى المطار، وعندما وصلنا، عاونني (أبوحاتم) في إنزال الحقيبة، ودخلنا معًا، وتوجهت نحو (الكاونتر) المعد للرحلات الدولية، وأدخلت حقيبتي وأعطتني الموظفة بطاقة صعود الطائرة، كان قد بقي على الرحلة قرابة ثلاث ساعات، عدت إلى (أبو حاتم) الذي قال لي:

- تعال.. سنذهب إلى مكان قريب.

- أرجو ألا نتأخر.. فالطائرة ستقلع في السادسة.

- (ماعليك !)

خرجت معه، وركبنا السيارة مرة أخرى، وانطلق بنا، والتفت نحوي وقال:

- هل هناك مكان تريد الذهاب إليه؟

- لا.. فقط (بيتنا) في الرياض!

ابتسم وقال وهو يدير عجلة السيارة نحو أحد الطرق:

- سنذهب إلى مكان جميل.

كنت صامتًا طوال الطريق، أتأمل الطرق والأشجار، خضرة الأرض وزرقة السماء، حتى دخل (أبو حاتم) بسيارته إلى حديقة صغيرة، أوقف السيارة جانبًا، ونزل يمشي... ونزلت معه، جلسنا

على كرسي أمام بحيرة صغيرة، كان (البط) يسبح فوقها بكل هدوء، كان (أبو حاتم) كما أخبرني يحب المجيء إلى هذا المكان، حيث تختلي بنفسك، تتأمل جمال الطبيعة، وروعة خلق الله، وتسبح بخيالك بعيدًا، وتمضي الساعات دون أن تدري.

مضى ما يزيد على الساعة ونحن نتحدث ونتأمل الجمال المحيط بنا، عندما بدأت أشعر بالبرد فدرجة الحرارة في تلك اللحظة كانت خمس درجات مئوية، ولم أكن حينها ألبس ملابس دافئة؛ لأني مسافر إلى بلدي حيث الحرارة تقارب الـ (٤٣ْ) في ذلك اليوم.

ركبنا السيارة وانطلقنا عائدين نحو المطار، في صالة الانتظار كان هناك عدد من الشباب قدموا لتوديعي!

هكذا الدنيا، فكم من المرات أتيت إلى هنا لتوديع أحد الشباب في المطار، وها أنا أُودَّعُ من قِبَلِ من كنت أودِّعُ معهم.

الكل يسلم عليك، ويعانقك والدعوات تنهمر عليك، والأرقام تتبادل، والابتسامة الحزينة المرتسمة على الوجوه، والعيون مغرورقة بالدموع المحبوسة، كنّا مجتمعين في قلب المطار، والناس حولنا يتحركون، كانت الساعة الخامسة والنصف عندما أُعلن عن الرحلة، وقد دخل وقت المغرب، وخلف أحد الأعمدة اصطففنا وصلى بنا (أبو حاتم)، كان الموقف مؤثرًا للغاية، فقرابة عشرين رجلاً اصطفوا

خلف واحد منهم يؤدون نفس الحركات، وعندما انتهت الصلاة كان هناك عدد لا بأس به يتأمل المشهد، ويبتسم نحونا.

قمت من مكاني والتقطت حقيبتي اليدوية وودعت الشباب لوداع الأخير، وأسرعت نحو حاجز التفتيش، والنداء الأخير للرحلة يدوي في المطار.

وعندما اجتزت الحاجز، ابتسمت نحوي المفتشة وهي تقول:

- لقد تأخرت.. أسرع فالطائرة على وشك الإقلاع.

شددت القبضة على حقيبتي، وأسرعت الخطى نحو بوابة لخروج، وقبل أن تبتلعني التفتّ وألقيت نظرة نحو (أبو حاتم) وبقية لشباب، وبابتساماتهم وأيديهم التي تلوح لي ابتسمت ودلفت إلى لبوابة،

وأنا أطوي صفحة من حياتي،

قضيتها في هذه الدولة...

مضت بسرعة كما تمضي

سحابة الصيف!

١٥

اللقاء



مقولة نيوزيلندية

E iti noa ana, na te aroha

رغم حضوري القليل، فإنّ حبي يصل من خلاله

هذه هي اللحظة التي كنت أنتظرها منذ زمن،

والتي حسبت الساعات والدقائق لها،

لقد حانت،

فمالي أتردد في خوضها؟

ما الذي جرى لي؟

هل أثر فيّ ما رأيته بالأمس؟

أم أن العيش هنا قد راق لي!

كانت الأفكار تتزاحم في مخيلتي، وأنا أحاول جاهدًا أن أرفع قدميَّ من أرض المطار لأحطها على سلم الطائرة، وعندما وصلت إلى باب الطائرة التفتّ ألقي نظرتي الأخيرة إلى المدينة التي عشت فيها أيامًا جميلة وأخرى لم تكن كذلك، استنشقت هواءها بعمق وللمرة الأخيرة ورمقتها بنظرة أخيرة...

فبالرغم من كل شيء فلن أنسى أبدًا أني تركت جزءًا مني لدى هذه الفاتنة، التفتّ نحو الباب وانحنيت برأسي لأدخل الطائرة.

كنت أحاول أن أشغل تفكيري بأي شيء آخر، بروعة اللقاء بعد أن تنقضي هذه الرحلة، بمن سألقى من الأحبة والأصدقاء، غير أن تفاصيل الحلم الذي رأيته البارحة عاد إليَّ بكامل تفاصيله المرعبة، وبيد مرتعشة وضعت حقيبتي بجانبي، وربطت حزام الأمان بإحكام،

كنت أشعر بنبضات قلبي تتصاعد بقوة، أحكمت القبضة على يديَّ، ونفثت الهواء من داخلي لأشعر نفسي بالراحة والأمان.

تحركت الطائرة على المدرج ببطء ومشاعري تتحرك معها، وعندما بدأت تزيد من سرعتها كانت ضربات قلبي تزداد معها سرعةً كذلك، وعندما ارتفعت كنت أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أطرد كل الذكريات المؤلمة التي خلفتها ليلة الأمس، وعندما استقرت الطائرة في السماء بدأت معها في الاستقرار، وأنا أرمق الشاشة الكرستالية والتي تعلن بوضوح أنه مازال أمامي أكثر من ١٨ ساعة سأقضيها معلقًا بين السماء والأرض!

كانت أمامي قرابة أربع ساعات ومن ثم سنتوقف في مدينة (ميلبورن) في أستراليا، ومن ثم سنطير إلى مدينة (دبي) في رحلة من أطول الرحلات المباشرة في العالم!

عندما بدأت الطائرة تستعد للهبوط في مطار (ميلبورن)، أضيئت شاشة تطلب منّا ربط أحزمة المقعد، جلست في مقعدي، وأنا أحكم السيطرة على نفسي، وكانت عملية الهبوط أكثر هدوءًا من الإقلاع، أعاد ذلك جزءًا من الثقة إليّ.

كانت مدة مكوثنا على الأراضي الأسترالية لا تزيد على نصف ساعة، غير أن الملاحين طلبوا منّا مغادرة الطائرة، والانتظار في صالة المطار.

كثيرًا ما أعشق الجلوس في المطارات والتأمل فيمن حولي، خصوصًا عندما تكون بطاقة صعود الطائرة معك، ومقعدك في الطائرة مضمونًا... وإذا كان غير ذلك، فللأسف سيتحول مكوثك إلى عذاب نفسي!

وفي المطارات تنكشف نقاط ضعفنا، فالكل إما مسافر أو ينتظر مسافرًا، فلحظات الوادع واللقاء تكشف غالباً عن معدننا الحقيقي، وتظهر ما نحاول تخبئته من المشاعر.

في ركن قصي جلست أتأمل ما حولي، أقرأ اللافتات والعيون! أخرجت هاتفي المحمول وجدت أنه مازال يعمل، وبآخر ما تبقى لي من رصيد أجريت اتصالي الأخير! كنت أحفظ الرقم، لذا ضربت الأزرار بسرعة، وضغطت على الزر الأخضر الصغير، ثم رفعت السماعة وبعد لحظة صمت، بدأ صوت الرنين المميز يرن في داخلي، ويهزني... وفجأة توقف الرنين وسمعت صوتًا ضعيفًا يعلن رفع السماعة ومن أعماق سحيقة خرج لي صوت يقول بتوجس:

- مرحبا!

- السلام عليكم... معك (محمد).

- (محمد)؟!

- (أخوك... يالدبهرق!)

- هلا.. هلا حمادة... ما شاء الله أمداك توصل؟ أخبرك بتوصل (بكرة)؟

- بكرة !! كلها بس (١٥ ساعة طيران متواصل!).

أحسست بغصة في حلقي وأنا أقول له كم بقي على وصولي، وسعدت بتعاطفه معي عندما قال:

- الله يعينك! خلاص بإذن الله بانتظارك في مطار الرياض.

- جزاك الله خيراً.. سوف أتصل بك من (دبي) بإذن الله.

- مازلت تبي الأمر (مفاجأة).. لأنه إلى الآن.. ماحد يدري!

- خليها كذا... سيكون بيننا اتصال في وقتها.

لم أسمع ما قاله بعد ذلك؛ لأن صوتًا متقطعًا حال بيني وبينه، وعندما أردت معاودة الاتصال سمعت صوتا ناعما يخبرني بأن (الرصيد انتهى).

كانت الساعة حينها تقترب من التاسعة مساءً.. وفي ركن منزوٍ في المطار الكبير، فرشت معطفي وحددت القبلة بعد أن سألت أحد الموظفين عن الشمال، وصليت العشاء وحيدًا، بين جموع لا تعرف أية أهمية لما تفعله، بل ولا تكترث لذلك، بعدما انتهيت كانت سماعات المطار تعلن عن إقلاع الرحلة المتوجهة إلى مدينة (دبي).

حملت حقيبتي ومعطفي، وتوجهت نحو البوابة، أعطيت الموظف أوراقي وبعد نظرات متفحصة عدة سمح لي بالدخول إلى الطائرة!

عدت إلى مقعدي وبعد أن اكتمل عدد الركاب، أغلقت أبواب الطائرة، وربطت الحزام استعدادًا للإقلاع في رحلة طويلة!

بعد الإقلاع كانت الشاشة أمامي تعلن بوضوح أنه مازال أمامي أكثر من ١٥ ساعة! لم أكن أدري كيف سأقضي هذه الساعات الطوال، كانت الطائرة شبه فارغة، والركاب موزعون فيها، والحديث مع أحدهم لم يكن خيارًا مطروحًا، لذا أخرجت كتابًا من حقيبتي، كنت أدخره لمواقف كهذه، وانهمكت في قراءته.

مضت نصف ساعة فقط، كنت أشعر خلالها بملل شديد، عندما اقترب مني أحد الملاحين وهو يقول بود:

- ملل، أليس كذلك؟

- بالطبع...

- لا مشكلة.. بإمكانك متابعة برامجنا المتنوعة، فلدينا خيارات كثيرة من برامج ثقافية، وأفلام وثائقية، وأفلام ترفيهية، بالإضافة إلى العديد من الخدمات الأخرى.

كنت أعرف ذلك بالطبع، ولكن طريقة عرضه لهذه الخدمات كان جذابًا للغاية، ومثيرًا.. شكرت (عبدالله) وهو الاسم الذي كان معلقًا على قميصه، وقال لي:

- إن رغبت في أي شيء... أرجو ألا تتردد في ندائي.

انغمست مرة أخرى في كتابي، وعندما انتهيت منه، بدأت أقلب القنوات العديدة، وبدأت في متابعة ما يعرض على إحدى تلك القنوات، كانت الساعة تعلن عن مضي أكثر من ثلاث ساعات منذ الإقلاع.

ابتسمت في داخلي وأنا أتذكر كلمات أخي عندما كان يحادثني عبر (الماسنجر)، عندما قال لي:

- قبل أيام عدة حضرت مؤتمرًا في فندق الأنتركونتينتال، وكان في بهو الفندق مجسم كبير للكرة الأرضية، فوقفت أمامه متأملاً، وتذكرتك.. فرسمت بيدي خطًا بين السعودية ونيوزيلندا، وابتسمت في داخلي وقلت (هذي الديرة ما يروح لها إلا واحد "مقرود"!!).

رمقت الشاشة التي أشارت إلى تبقي (١٢ ساعة) من الزمن إلى مطار دبي، وهززت رأسي مبتسمًا، وبدأ الملاحون في إطفاء أنوار الطائرة، إلا من نور خافت يضيء الممرات، أرخيت مسند الظهر، وأصغيت للهدوء الشديد، مستمتعًا بالنور الخافت الهادئ، وبكل هدوء أغمضت عينيّ، وأنا أمني نفسي باللقاء القريب، وأتخيل تفاصيله في ذهني...

وسبحت في عالم الأحلام...

* * *

- سيد (محمد).. أأنت مستيقظ؟

فتحت عينيّ ببطء، وبصعوبة حاولت أن أستوعب ما حولي، فلا أدري كم مضى عليّ نائمًا، فخلال اليومين الأخيرين لم أهنأ بنوم كافٍ. كانت أنوار الطائرة مضاءة، فاحتجت لمدة لكي أتعود على كل هذا، وبعد برهة استطعت أن أميز (عبد الله) المضيف الجوي، الذي مازال واقفًا، وهو يضع أمامي قائمة للطعام، ويقول:

- صباح الخير، نحن الآن نقدم وجبة الإفطار! سأعود لك بعد دقائق.

صباح!

إفطار!

لا أدري كم مضى علي نائمًا، ولكني عندما لمحت الشاشة أمامي لم أصدق ما رأيته، فلقد بقي أقل من ثلاث ساعات لكي نصل إلى (دبي)!

عاد (عبدالله) مرة أخرى، حاملاً صينية الطعام، ووضعها أمامي، فاستأذنته للحظات لأغسل وجهي، وأزيل ما علق به من آثار النوم.

أمام المرآة وقفت أتأمل ما حدث، فلقد نمت لمدة طويلة! وابتسمت وأنا أتذكر كلامًا حول أن النوم هو أفضل وسيلة ليمضي الوقت بسرعة في الرحلات الطويلة.

عدت إلى مقعدي، وبعد أن أنهيت الإفطار، كان الوقت المتبقي على الوصول قد تناقص فلقد بقيت ساعة واحدة!

بعد مدة من الزمن أضيئت إشارة أحزمة الأمان، وصوت الكابتن يدوي بين جنبات الطائرة:

- استعدادًا للهبوط في مطار دبي الدولي، نرجو من الركاب العودة لمقاعدهم وربط أحزمة الأمان.

عقدت حاجبي متعجبًا، فمازال أمامنا الكثير من الوقت، وهاهو الكابتن يطلب منّا الاستعداد للهبوط!

بدأت الطائرة في النزول تدريجيًا، وعلى ضوء النهار الوليد بدأت ألمح زرقة الماء، غرقت في تأملاتي وأنا أنظر عبر النافذة إلى الفراغ المحيط بنا، فسرعان ما تلتقي الطائرة بالأرض مرة أخرى بعد أن فارقتها، وألتقي أنا الآخر بمن فارقتهم.

اقتربت الطائرة أكثر إلى الأرض، واشتد ضوء النهار، وبدأت الشمس تخرج إلى الكون وتنشر أشعتها، عندما حطت الطائرة في مطار دبي، وبعد أن توقفت أعلن الكابتن:

- مرحبًا بكم في مطار دبي الدولي، درجة الحرارة هي (٤٥) درجة مئوية، الرياح غربية متوسطة السرعة، والتوقيت المحلي يشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، نتمنى لكم طيب الإقامة، وشكرًا لاختياركم (طيران الإمارات)!

على صوت هذا النداء المنعش، حزمت حقيبتي اليدوية، وقمت من مقعدي، وخرجت من الطائرة، وأنا أتعجب من التقلبات التي عشتها في هذه الطائرة، فعندما دخلتها كانت درجة الحرارة (٥ درجات فقط)، وكان الوقت هو السادسة مساءً، وبعد أن أمضيت أكثر من ثماني عشرة ساعة فيها، خرجت ودرجة الحرارة (٤٥ درجة)، والوقت هو الخامسة والنصف صباحًا!

فلقد ازداد عمري (سبع ساعات ونصف)، وازداد الطقس (أربعين درجة)!

وعندما خرجت من المطار، كنت أعرف أني سأعود إليه هذا المساء، فمازالت أمامي رحلة أخيرة..

.. إلى (الرياض).

كان بانتظاري الصديق العزيز (فواز) الذي كان مقيمًا بالشارقة، فلقد أخبرني قبل أيام عدة بأنه سيكون في استقبالي، ركبت معه وتوجهنا نحو الفندق الذي أقيم فيه إلى موعد طائرتي الأخرى، وفي بهو الفندق جلسنا نتحدث عن كل شيء، عنه وعن حياته في الشارقة، عن دراسته.

كان (فواز) شابا يمتلئ طموحًا، ومنذ أن تعرفت عليه في إحدى الندوات التي اشتركنا في تقديمها منذ سنوات عديدة إلى هذه اللحظة التي جلسنا فيها نشرب فيها العصير الطازج في

الفندق، كان لايزال يحمل طموحًا عاليًا، وتفكيرًا راقيًا، وهمة تجعلك تلهث للحاق بها.

أمضيت معه ساعات رائعة عدة، وبالرغم من امتحانه الذي سيبدأ في العاشرة صباحًا إلا أنه أبى أن يودعني إلا قرابة التاسعة والنصف.

صعدت إلى غرفتي، وعلى السرير الوثير استرخيت وأمسكت بهاتفي المحمول، وأخرجت منه بطاقة الاتصال النيوزيلندية الفارغة، ووضعت مكانها بطاقتي السعودية، وبأصابع متوترة ضغطت الأزرار، وضغطت على زر الاتصال، لحظات وبدأ بعدها صوت الرنين الرتيب، سمعت صوتًا بعيدًا مازال به بعض آثار النوم يرد علي، ميزت فيه صوت (والدتي).. فقلت:

- السلام عليكم..

أتاني صوتها بعد برهة كأنما تتأكد من الصوت الذي سمعته وهي تقول:

- وعليكم السلام... أأنت محمد؟

- نعم.

ترددت قليلاً ثم أضافت:

- صوتك قريب! هل وصلت؟

أهي عاطفة الأم؟ أم حاسة سادسة لا أعلم عنها شيئًا، فلم أدر كيف علمت والدتي بمقدمي، خصوصًا أن أخي لم يخبر أحدًا حسب اتفاقنا المسبق، فقلت لها:

- نعم.. أنا في (دبي) الآن، وبعد العشاء سأكون لديكم، بإذن الله.

وبصوت تخنقه العبرة سمعتها تقول:

- الحمدلله على السلامة يا ولدي.

لم أستطع مواصلة الحديث معها، فعبراتها، مع اختناق صوتي لم يساعداني على إجراء حوار واضح المعالم، فلم أملك إلا أن أودعها.. على موعد للقاء في هذا المساء.

أنهيت الاتصال بأصابع مرتعشة، وأنا أحاول أن أكبح جماح نفسي التي بدأت تتقلب ضدي، وبعد برهة اتصل بي أخي، وعندما ضغطت على زر الإجابة، بادرني قائلاً:

- (مالك داعي... ليش تقول لأمي انك في دبي!)

- لماذا !؟

- ألم نتفق على أن تكون مفاجأة؟

- (إلا ... بس والله خايف يجيها شيء، لما أدخل فجأة !)

تأكد أخي من موعد الرحلة القادمة، وعندما أنهيت الاتصال كان رأسي يموج بأنواع الانفعالات، حاولت أن أستريح، فأغمضت

عينيّ، غير أن النوم أبى أن يحل ضيفًا عليهما، وبعد برهة من الزمن تصاعد الرنين من هاتفي المحمول، فرفعته أنظر إلى المتصل وأنا أحوقل في داخلي.

كان المتصل هو أحد أصدقائي القدامى الذين درست معهم في المرحلة الثانوية، والذي انتقل للعمل والسكن في (أبو ظبي)، وبعد أن عرف بمقدمي في هذا اليوم منذ مدة، هاهو في الطريق إليَّ، بعد أن تأكد من موقع الفندق، وأعرف أنه لن يتركني إلا عندما أدخل باب الطائرة!

بعد نصف ساعة نزلت إلى بهو الفندق لأقابل العزيز (أبو هاشم)، الذي كان قد وصل للتوّ، وعندما وقعت عيناي عليه لم أكد أتعرفه في الوهلة الأولى، فـ (الكندورة) التي كان يرتديها، و(الحمدانية) التي اعتمرها فوق رأسه، غيرتا الكثير من ملامحه، ركبت معه في سيارته (الجيب) الزرقاء، وقال لي:

- إلى أين تريد الذهاب؟

ابتسمت وقلت مشيرًا لملابسي:

- إلى أي مكان، طالما أنه يحوي تكييفًا، فملابسي التي جئت بها، لا تناسب أبدًا هذا الطقس الحار وهذه الرطوبة الشديدة.

انطلقنا ونحن نتحدث في كل شيء، عنه، وعن طفله (هاشم)، وعن مشاريعه الناجحة في هذه الدولة، وأحلامه فيها، وفي

الحقيقة لم أر شخصًا عصاميًا تعب في بداية حياته، مثل صاحبي هذا، فبالرغم من وفاة والدته في وقت مبكر من عمره، وتعثر تجارة والده، وبدايته المبكرة بالبيع والشراء وهو صغير عندما كان يدور ببضاعته في (أسواق بن دايل)، إلى أن أنشأ صرحًا كبيرًا للتدريب هو الأول من نوعه في منطقة الخليج، وبالرغم من هذا كله، مازال هو نفسه الشخص البسيط، ذو البسمة الرائعة، والبديهة الحاضرة.

أزال جلوسي مع (أبوهاشم) كل ما بي من آثار تعب الرحلة الماضية، وبالرغم من الوقت الممتع الذي قضيته معه، إلا أنه وكعادة الأوقات السعيدة، مضى سريعًا، وفي تمام الساعة السادسة، وعلى عتبات أرض المطار ودعته مع (فواز) الذي وبرغم كل مشاغله أبى إلا أن يكون حاضرًا في وداعي.

في سماء الرياض وعندما بدأت الطائرة في الهبوط، كنت أنظر من النافذة، أرمق أنوار مدينتي التي نشأت فيها، أحاول أن أحدد معالمها من هنا، وما الذي تغير فيها، وكيف استطعت أن أتركها كل هذه المدة، وعندما التقت الأرض بالسماء، ووطئت الطائرة أرض مطار الرياض، شعرت بقشعريرة تسري في أجزاء جسمي كافة، أغمضت عينيَّ متخيلاً لحظات اللقاء المقبل عليها، وأتنفس بقوة وعمق كعمق المحبة التي أشعر بها تجاه من سألقاهم هذه الليلة، لم أكن أعرف أن كل هذه العواطف تسري بين جوانحي

تجاه مدينتي! تتحنح من بجانبي وسمعته يقول مبتسمًا وهو يرثي لحالي:

- تخاف من الطيران.. لا بأس... لقد وصلنا!

(.. الخوف..)

لم أتمالك سوى أن أبادله الابتسام،

وأهز رأسي.

فالخوف هو آخر شيء قد أصف به ما أحس به،

فهل في اللقاء خوف!

وهل رؤية الأحبة.. مخيفة!

بعد أن أنهيت إجراءات الدخول، اتصل أخي يخبرني بأنه بانتظاري في الخارج، وانقطع الاتصال بيننا، فلقد أعلن هاتفي المحمول عن نفاد ما به من طاقة.

وبينما أنا أنتظر أمام مكان استلام الأمتعة، كنت أحاول أن أعيد الحياة إلى جهازي الذي أصبح قطعة لا فائدة منها، وبعد محاولات استطعت أن أجري مكالمة وحيدة دامت ثوان عدة شرحت له فيها ما يحصل.

بعد قرابة نصف الساعة في انتظار الحقائب، ووسط تذمر الركاب، والفوضى التي تعم المكان، وصراخ الأطفال، وتأفف

القادمين من (دبي)، بدأت الحقائب في الخروج من باطن الأرض، وبعد مدة طويلة خرجت حقيبتي على مهل، وبعد أن أخذت حقها من الدوران، تعرض نفسها أمام الركاب، وهي تستجديهم أن يلتقطوها من هذا الجو الخانق، والفوضى العارمة، إلا أنها لم تجد يدًا تحملها سوى يدي، فالتقطتها ووضعتها على العربة، وانطلقت خارجًا.

كان هناك جمع غفير أمام بوابة القدوم، كل الأعين تنظر إليك في لهفة، وعندما لا تتعرف عليك تعود وتنظر إلى غيرك لعلها تتعرف عليه فتزيل لهفة الترقب بابتسامة الفرح.. ابتسامة اللقاء.

بحثت بين الجمع عن وجه مألوف، لكني لم أجد ما أروي به ظمأ الشوق الذي يشتعل في داخلي، أعدت النظر مرة أخرى، لكنه ارتد إليّ حسيرًا، أخرجت جوالي وأنا أرجوه ألا يخذلني هذه المرة،

إنه اتصال يتيم..

فقط أريد أن أعرف أين هو..

لكنه أصر على سباته..

وقفت في الصالة القدوم أرمق الناس بعينين قلقتين، أبحث عما يطمئنهما، طال انتظاري، وبدأ سائقو الأجرة يتكاثرون حولي، وكلٌّ منهم يهمس في أذني (لدي سيارة في الخارج)، (سأوصلك

حيث تريد بسعر رخيص)، (سيارة جديدة مكيفة)، (هل أشيل الشنطة؟)!

كانت تلك الكلمات تزيد من تشويش ذهني، وتزيد من قلقي كذلك، وأنا أدور ببصري بين الركاب... عندما لمحته،

كان أخي واقفًا أمام بوابة الركاب القادمين ممسكًا جواله بيده، يحاول الاتصال بي، ينظر تارة إلى بوابة الخروج، ومن ثم يعيد النظر في الصالة، يبحث عن شيء ما... يبحث عني.

وعندما أعاد النظر إلى الصالة التقت الأعين لبرهة، ابتسمت خلالها، غير أنه أكمل بحثه كأنه لم يعرفني!

تقدمت نحوه، وعندما التقت الأعين مرة أخرى، ازدادت ابتسامتي اتساعًا، وأشرت له بحاجبيّ، وتوقف نظره لبرهة، ينظر إلي، ثم عادة مرة أخرى يبحث عني بين الركاب!

تكررت الحركة أكثر من مرة، وأنا في كل مرة أزداد قربًا، حتى وصلت إليه، وكدت أصدمه بالعربة التي أدفعها أمامي، وعندما رفع عينيه نحوي مستنكرًا، اصطدم بابتسامتي، لوهلة ظننت أن الوقت قد تجمد، والحركة من حولنا قد توقفت، وأنا أرمق عينيه اللتين تجمدتا لمدّة، وحاجبيه اللذين قطبهما، وكأنما يستحث ويشد من عزم ذاكرته لتحديد هوية من أمامه، كنت لحظتها أحس ببرودة شديدة تسري في أطرافي، وأسمع بوضوح دقات قلبي الممتلئ إثارة، ومددت يدي وبكل هدوء قلت:

- السلامُ عليكم.

بدأت أشعر بالحركة من حولي تعود بسرعة، وأنا أرمق العينين اللتين أشرقتا بفعل الابتسامة التي تجلت واضحة على شفتيه، وهو يتجاهل اليد الممدودة إليه، ويفرد ذراعيه ويقول بسخريته المعهودة:

- (وعليكم السلام... ما عرفتك يا (حلو)، توقعتك بتلبس ثوب... (بالأحضان يا راجل)!

بعد أن سلمت عليه قال لي:

- (غريبة عبدالعزيز ما شافك؟).

ونادى على ابنه، الذي كان واقفًا ينتظر أمام البوابة، وبعد أن سلمت عليه، قال لأبيه معتذرًا:

- (ماشفته.. من وين طلع؟).

ابتسمت له وقلت:

- لا عليك.. فلقد أتيت من السماء.

طلب مني أخي أن أصحبه إلى المواقف حيث وضع سيارته، غير أني فضلت الانتظار حتى يخرج بها، لكي أتمكن من أداء صلاة المغرب والعشاء، وبعد أن أديت الصلاة، خرجت خارج المطار، أتنفس الهواء بعمق، وأنظر نحو السماء، وكل شيء، أحاول أن أملأ

الفراغ الذي بداخلي، وأعوض كل ما فاتني، توجهت نحو السيارة، وعندما أردت أن أفتح الباب، ابتسم أخي بتعجب وقال:

- أتريد أن تقود؟

كدت أقع من الضحك المحرج، وأنا أتذكر نفس الموقف الذي حصل لي عندما أردت أن أركب سيارة (بنْ) سائق المعهد، عدت أدراجي وركبت من الجهة الأخرى، وعندما وضعت يدي على مكان المقود هناك... هوت في الفراغ!

في الطريق كنت أتأمل ما حولي، وأنا ألحظ التغير الكبير الذي حصل برغم قصر المدة لتي أمضيتها خارج أسوار بلدي، وأتعجب من الرياض فما إن تتركها لبضعة أيام، إلا وتفاجأ بحجم التغير الحاصل فيها عندما تعود!

أوقف أخي سيارته أمام المنزل، وقفت أتأمله من الخارج، وعندما فتح الباب ومد يده يدعوني للدخول، توقفت لبرهة وشريط الذكريات يمر أمام ناظري، منذ البداية.. منذ أن خطوت خارجًا من المنزل، إلى هذه اللحظة، وبعد تردد قدمت رجلي اليمنى داخلاً، وفي المنزل كانت العائلة كلها مجتمعة، والداي، إخوتي، أخواتي، والبنات والأبناء...

اختلطت المشاعر، وانهمرت الدموع، ودارت الأسئلة المعهودة، والتعليقات المضحكة من هنا وهناك، كنت أعيش وسط جو عائلي

افتقدته منذ زمن طويل، أحاول أن أستمتع به، وبالرغم من ذلك كنت أحس بأني ضائع بينهم، لم أعد أفهم النكات التي تدور، والتعليقات التي يقولونها...

كنت قد فقدت الكثير، ومازال أمامي الكثير لأعرفه..

بعد أن انفض الاجتماع وعاد كلٌّ منهم إلى منزله، جلست أنا ووالدتي نتبادل أطراف الحديث، وفي لحظة عم الصمت المكان، وساد هدوء عجيب، وكلٌّ منّا يفتش في ذكرياته، لم أتمالك نفسي فقمت من مكاني، وتقدمت نحوها، وعلى حجرها وضعت رأسي،

لقد كنت أحتاج إلى هذا.. فأنا طفلها المدلل،

أمسكت بيدها الدافئة المخضبة بالحناء وأخذت أقبلها،

وهي تتحسس بيدها الأخرى على رأسي،

وبكل حب،

خفضت رأسها..

وهي تجاهد لتمسك دمعتها،

وقبلت ما بين عيني،

ودموعنا تختلط ببعضها...

وتقول بصوت متحشرج:

- الحمد لله على السلامة يا بني!

أبطال الأوراق

وليد:

بعد غربة دامت ٣ سنوات، عاد (وليد) إلى أرض الوطن، حاملاً شهادة في هندسة وصيانة الطائرات، وهو يعمل الآن في شركة أرامكو السعودية مهندسًا لطائرات (الهيلوكبتر)، وقد تزوج حديثًا، وكان متابعًا ومشجعًا لي خلال مدة كتابة هذه الأوراق.

أبوحاتم:

عاد (أبو حاتم) إلى أرض الوطن، بعدما أنهى برنامجه التدريبي في هندسة وصيانة الطائرات وهو يعمل الآن مهندسًا لطائرات (البوينج)، ومازال يحتفظ بعلاقات طيبة مع الجالية الإسلامية هناك، ويتابع بشغف أخبارهم، وساهم في وضع اللمسات النهائية على هذه الأوراق.

فاضل:

بعد أن أنهى دراسته في هندسة الطيران، عاد إلى بلده وعمل في الخطوط العمانية.

أدموند:

شخصية "وهمية" لا أساس لها على أرض الواقع، وإن حرصت أن أجمع فيها (أقبح) ما رأيته من كبار السن في ذلك البلد، وهذه الشخصية تعد (تحويرًا) لشخصية من سكنت لديهم في أيامي الأولى، وإن كانوا يختلفون جذريًا عنه، إلا أني حاولت أن أشركهم في بعض النقاط البسيطة.

عذيب:

بعد أن عاد (عذيب) إلى بلده، توجه مرة أخرى إلى مدينة (أوكلاند) في نيوزيلندا، وانتظم في جامعة (أوكلاند للتكنولوجيا) يدرس فيها حاليًا، ويخطط لأن يؤدي فريضة الحج مع والديه.

هيلاري:

اعتزلت العمل (كمنسقة) لشؤون العرب، بعد اختلافات مالية عدة مع الطلاب العرب، لكنها مازالت تقدم العديد من الخدمات (لمن تعرفهم شخصيًا)، ولقد زارت العديد من الدول العربية، ولأكثر من مرة في المدة الماضية، ومازال التواصل بيننا مستمرا إلكترونيًا، وتعشق الطبيعة الصحراوية، وتحب التصوير.

طلال:

شخصية (طلال) هي "غير واقعية"، بل هي مزيج من أشخاص عدة قابلتهم هناك، أحدهم يدرس الطب في (دنيدن)، والآخر

مصاب بفيروس الإيدز، والثالث عاد إلى الرياض لمدة، لكنه لم يستطع التأقلم هنا، فعاد مرة أخرى وهو الآن يسكن مع (صديقته!).

جي لين:

بعد تلك المواجهة مع (جي لين) أصبح دائم السؤال عن الدين الإسلامي، وقد زار المسجد مرات عدة، وجلس مع العديد من الدعاة، وتمت مناقشته في كل الأمور التي كانت مشكلةً لديه، وبعد لقاء عقده مع القناة الإسلامية، تم إعطاؤه نسخة من القرآن الكريم، وعاد إلى بلده وهو يؤكد لي أنه سيتصل بالجالية المسلمة في بلده، ومنذ ذلك الحين لم أسمع عنه شيئًا.

توماس:

بعد تلك المواجهة بينه وبين (أحد الشخصيات التي كانت تمثل "طلال") لم يعد له أي صوت، وانشغل في التحدث عن الرياضة والصحة، وبدأ يتحاشى المرور بجانبنا وبجانب أي مسلم في المدينة.

كانا:

كانت شديدة الحرص على معرفة دقائق الأمور عن العرب والمسلمين، وما يتعلق بالحجاب والمرأة، طيلة مدة الدراسة، وبعد أن أنهيت الدراسة في المعهد، وبعد عودتي إلى بلدي، أصبحت توجه

أسئلتها عبر البريد الإلكتروني، وهي متزوجة الآن وتقيم مع زوجها في (أوساكا).

جون وسالي:

منذ بداية سكني لديهما حرصت (سالي) على زيارة المسجد، وخرجت منه بالعديد من المعلومات والمنشورات ونسخة من ترجمة القرآن الكريم، كانت تقرأ فيها طيلة مكوثي لديهما، ومنذ أن خرجت من منزلهما والتواصل مستمر بيننا إلكترونيًا؛ فجون مازال في عمله مديرًا في أكبر شركة للمخازن هناك، وسالي قد تقاعدت من عملها بعد خروجها من عملية جراحية في المخ، أزالت فيها ورمًا حميدًا، وقبل هذا بمدة توفيت والدتها، ونثرت رمادها مع رماد والدها فوق قمة أحد الجبال!

قبل البداية

على ضفاف الساحل الشرقي، جلست أنصت إلى صوت الموج الهادئ، مستمتعًا بالهواء العليل المشبع برائحة البحر، متأملاً الطيور المنتشرة على طول الساحل، عندما انتزعني من هذا السكون الرائع صوت رنين هاتفي، ألقيت نظرت سريعة على المتصل، كانت الشاشة تومض باسم (أبورياض)، ضغطت على زر الإجابة:

- مرحبا (أستاذي).

- أهلا (بتلميذي) النجيب، الذي لم أيأس منه بعد.

لم أتمالك نفسي من الضحك، فمازال (أبورياض) يعيد عليَّ الكرة بعد الأخرى لكي أزيح عن قلمي صدأه، أو أنفض عن (لوحة المفاتيح) الغبار، وأبدأ الكتابة.

- صدقني يا عزيزي أنا أحاول.. لكن ليست لدي أية مواضيع أكتب عنها!

- ستجد يا (محمد) لا تحاول أن تختلق الأعذار.. ابدأ بأي شيء.. مثلاً رحلتك إلى نيوزيلندا!

بالرغم من مضي مدة طويلة، إلا أن (أبورياض) مازال يعيد هذا الموضوع، ونفس الأفكار! ونفس رحلة (نيوزيلندا) هذه.

استمر (أبورياض) بقوله:

- جرب يا محمد... جرب، أنت لن تخسر شيئاً، اكتب لي (خمس صفحات) وأرسلها لي، ودعني أراجعها، ومن ثم يمكنك أن تقرر إما أن تواصل أو تقف!

راقت لي الفكرة، مع أن كتابة (خمس صفحات) بدت مستحيلة، لذلك قلت له:

- سأحاول، ولكني الآن في (الشرقية) وعائد بعد قليل، وسأحاول أن أجد لهذا وقتًا في الأسبوع القادم.

- أنت (تضيّع وقتك) بأعذار واهية، لكني سأعطيك حتى الأسبوع القادم، وسأعاود الاتصال بك.. صدقني لن أيأس منك.. حتى يخط الشيب شعر رأسي!

- (شكل هالشيب بيطلع الأسبوع الجاي).

أنهيت المكالمة وأنا أفكر فيما قاله (أبورياض)، فبالرغم من أن رحلتي إلى نيوزيلندا، كانت مفيدة لي على الصعيد الشخصي، إلا أني كنت أتساءل.. لماذا سيجدها القارئ ممتعة؟ ويقتنيها (إن نشرت)، أو سيضيع جزءًا من وقته ليقرأها على صفحات الإنترنت،

وبغض النظر عن محاولاتي الكتابية السابقة، والتي لم تتعد أرفف قرصي الصلب، فهل سأتمكن من إنهاء مشروع كبير كهذا؟

انطلقنا نحو الرياض، كنّا أربعة أشخاص (عبد العزيز، بسام، زياد، وأنا)، وسرعان ما انهمك الثلاثة في حديث موسع حول رحلتهم الأخيرة، وبما أني لم أشارك فيها، فلم أستمتع بالنقاش ولا بالحديث، وبكل هدوء أخرجت جهازي المحمول من حقيبته، وبعد أن أيقظته من سباته، فتحت برنامج (الوورد)، وجلست أرمق الشاشة بهدوء.

كان مؤشر الكتابة يومض أمامي برتابة مملة، كأنه يقول: إلى متى تريد أن تجعلني معلقًا هكذا دون حروف تؤنس وحشتي؟

وحديث (أبورياض) يدور في مخيلتي.

من أين أبدأ؟

وماذا سأقول...؟

لوهلة بدا المشروع كبيرًا وشاقًا، ولا أستطيع عليه، فهممت أن أغلق الجهاز، وأعود إلى حالتي في السماع، دون المشاركة،

قلت في نفسي: (خمس صفحات... وسأقف...)

هي تجربة..

ولكن..

هل سأنجح فيها؟

رمقت من كان معي في السيارة، كانوا في عالم آخر،

يتحدثون.. ويستعيدون الذكريات،

وكنت في عالمي الخاص..

أستعيد ذكرياتي..

بأدق التفاصيل..

وعلى جهازي المحمول بدأت أضغط الأزرار ببطء،

وسرعان ما تلاحقت الأحرف..

وانتهت الصفحة الأولى،

وتبعها مئات الصفحات!

فهل استطعت أن أقدم شيئًا؟

أتمنى..

محمد بن عبدالعزيز الداود

mdawood.com

طبعة ثانية!!

لم أكن أتخيل أن يتصل بي مسؤولو النشر في "مكتبة العبيكان" بشأن إعادة طبع الرواية للمرة الثانية، في مدة لا تتجاوز شهراً واحداً من تاريخ صدور الطبعة الأولى!

حقاً كان شعوراً رائعاً، أن تلمس نجاح كتابك بيديك، وترى نتاج ما كتبته يتضح جلياً أمام ناظريك، وتشعر بأن ما قدمته لم يذهب سدى.

فأحمد الله -عز وجل- أولاً؛ ثم أشكر آلاف القراء الذين منحوني ثقتهم، وغمروني برسائلهم الإلكترونية الجميلة.

فلكم ... ولهم أقول شكراً،

وكل طبعة وأنتم بخير،،،

ودمتم بخير

محمد

قالوا عن الرواية

1. Thank you so much for the book, I received it and started reading it, It is very good. I will advise the Saudi guys to get before going to NZ.

Good Luck and keep the good work..

Diya Abdo

New Zealand Embassy in Riyadh.

٢- عندما كان محمد يكتب أوراقه، ويعرضها عليّ، لم أصدق أنها الكتابة الأولى له.. تلك الكتابة التي يخجل منها البعض، فقد وجدت نفسي أمام كاتب مبدع.. يملك أدوات الكتابة الماتعة.. ووجدتني أقول إنه إضافة جديدة في عالم الرواية السعودية.

عبدالله بن ناصر الداوود (أبو رياض)

مؤلف وكاتب مسرحي www.al-glm.com

٣- يقدم الداود رحلته إلى نيوزيلندا، وفيها ينثُرُ أفكاره الإسلامية على وجه الخصوص، والاجتماعية بشكل عام، لحظتُ تعسفاً في طرح بعض الأفكار عن تفاهةِ الغرب، أو ضياعه، ولحظت أحياناً كثيرةً منطقية في العرض!

هل نصنف الداود من كتاب الأدب الإسلامي؟! لاشك في ذلك من حيث المضامين، أما من حيث الطرق الفنية فإنه امتلك القدرة على تلوين أسلوبه، فمن العناوين البراقة، إلى الصور الموحية، إلى العبارات الحكمية النيوزيلندية، إلى الأسلوب الشخصي الفكاهي، والعبارات العامية الطائرة! وهذا ما لا تجده في أساليب الإسلاميين التقليديين!

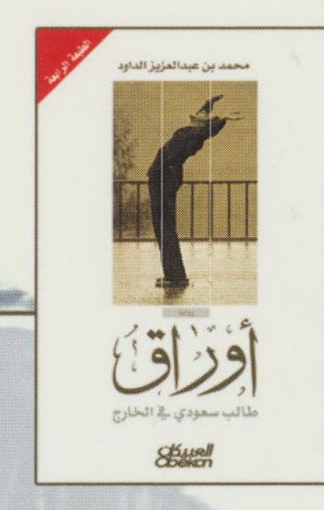
د. عبدالملك آل الشيخ

أستاذ الأدب بجامعة الإمام محمد بن سعود

٤- محمد: كم أعجبني التزامك في هذه الرواية بأن تنتزع تلك الضحكات بين الفينة والأخرى، ففي أحيان كثيرة أحرص على قراءة الرواية وحيداً حتى لا يراني أحد وأنا أضحك من كل أعماقي حين أقابل عباراتك المجنونة التي نثرتها بين أسطر أوراقك، (عذيب) ودخلاته الغير متوقعة، (إدموند) الذي أتقنت رسم ملامح شخصيته القبيحة... و(شارع السويدي)... وغيرها من (الذبات المصرقعة)!

علي الشريف

مقدم برامج ترفيهية بقناة المجد



فوق رأسي مباشرة سقط قناع الأكسجين الأصفر، وبصعوبة التقطت واحدا، فالاهتزاز الشديد والصراخ المدوي في المكان، والنحيب المرير، واتجاه الطائرة نحو الأرض .. بسرعة يجعلك تدرك بأن النهاية قد حانت، وأن هذه رحلة بلا عودة.

قادني إلى إحدى الطاولات وقال لي:

- انتظر هنا، سأعود قريبا.

دخل إحدى الغرف، وأخذ يكلم من فيها بصوت مرتفع، فجلست أنتظر إحضاره الزي "البرتقالي"،

ليُلبسني إياه ..!!

على ضفتي النهر امتد بساط أخضر إلى ما لانهاية، وتناثرت أشجار باسقة ملونة فتلك برتقالية اللون، والأخرى صفراء، وتلك حمراء، وخضراء، لقد درست في المدرسة بأن الأشجار في فصل الخريف ... وبرهن أستاذي على صحة هذه المعلومات بالصور، ومضت السنين، و... أراها في الصور فقط ...

حتى رأيتها الآن ..

حقيقة.



ISBN:987-9960-54-730-5

9 789960 54730 5

موضوع الكتاب: القصص العربية - السعودية

موقعنا على الإنترنت:

http:/www.obeikanbookshop.com